# فروغ

## نحو التعاون العربي

A.U.B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

A.U.B. LIBRARY

956.9
F24nA
C.1

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARY

عمر فروخ
دكتور في الفلسفة

# نحو التعاون العربي

وهو درس في إمكانيات البلاد العربية والنواحي التي يجدي فيها التعاون بينها
وتقرير لاتجاه التاريخ في الوطن الكبير نحو اشتباك الحوادث وتداخل المصالح ووحدة الشعور

67382

دار العلم للملايين

بيروت تشرين الثاني ١٩٤٦

LIBRARY

## للمؤلف

•

الاسلام على مفترق الطرق ( تعريب )

دفاعاً عن الوطن

عبقرية العرب في العلم والفلسفة

ابو تمام

حكيم المعرة

بشار بن برد

ابو نواس

اخوان الصفا

ابن باجه

ابن طفيل

سلسلة دراسات قصيرة في الادب والتاريخ والفلسفة

# تقديم الكتاب

وَطني كُلُّ بُقْعَةٍ عاشَ فيها
عَرَبِيُّ اللِّسانِ والإيمانِ
وَطني الشَّرْقُ كُلُّهُ يَتَجَلَّى
في جُهودٍ مِنَ الأَماني الحِسانِ
وَطني الغَرْبُ حَيْثُما حَلَّ في الغَرْ
بِ شُمُوسُ العُلَى بَنُو مَرْوانِ
أَتَخَطَّى الحُدُودَ شَرْقاً وَغَرْباً
وَأَرُدُّ الخُطَى عَلَى الأَزْمانِ

ع . ف

# الكلمة الاولى

•

لهذه الرسالة غاية واحدة . يجب ان يعرف العرب تلك العواملَ التي ساعدت دائماً على شدّ بعض الاقطار العربية الى بعض في وحدة من الثقافة والشعور ، وفي وحدة من الاماني والاهداف . هذه العوامل لا تزال موجودة ولكن عليها مثبطات من الاستعمار الغربي .

ان ترف اوروبة ، وقوتها المادية تقومان على استغلال الثروات في الشرق وعلى استعباد الشرقيين لآلة الصناعة والتجارة الغربية . وهذا الترف وهذه القوة المادية لا يمكن ان تدوما لاوروبة الا اذا بقي الشرقيون - والعرب منهم - غافلين عما يُكنّ صدرُ بلادهم من الثروات الطبيعية وصدور أبنائهم من القوى المعنوية .

لقد خاض العرب حربين عالميتين ، وكان الحلفاء يعدونهم في كل حرب بتحقيق اقصى احلامهم القومية فيستنيم العرب بما وَقر في صدورهم من حب الصدق وتصديق الرجال الى تلك الوعود . فما ان تضع الحرب اوزارها حتى تجد حلفاء الامس خصوم اليوم ، واذا الحرية والاستقلال وحق تقرير المصير قطـــع من الفاكهة المطبوخة بالسكر يعللنا حلفاؤنا بها كما تعلل الام الجاهلة طفلهـــا

بحلمة من المطاط .

من اجل ذلك كله وجب ان يعتمد الشرقيون – ونحن العرب منهم – على أنفسهم اذا ارادوا حياة قوية شريفة مطمئنة . واعني باعتمادنا على أنفسنا توجيـــه قوى الشباب ، الذين لم يتذوقوا طعم الاستعمار ولم يألفوا كسل الحياة المستعبدة ، توجيهاً منظماً .

وكما ان الطبيب الماهر لا يصف علاجاً الا بعد ان يلاحظ سير المرض في العليل وبعد ان يدرس تاريخ الاسرة المرضي ، فان على شباب العرب ايضاً قبل ان يقترحوا اوجه الاصلاح لأمتهم ان ينظروا في اسباب علتها وآلامها ، وألا يكتفوا بوضع اصبعهم على موضع الداء ، بل يجب ان يذهب الى « بؤرة العدوى » ، الى المكان الذي يتسرب منه الداء الوبيل الى جسم الامة العربيـة . ان القضاء على جراثيم التيفوئيد في المياه الملوثة بها أفعل في قطع دابر المرض من ترك هذه المياه على حالها والاشتغال بتطبيب المرض .

فيا أطباء الامة العربية ، ان الاموال التي تجنونها والمناصب التي تعلونها لا قيمة لها اذا زالت عظمة العرب القومية غـــداً من صفحات التاريخ . يجب الا يصبح العرب غـــداً قبائل كقبائل الزنوج في اوستراليا وافريقية ، ولا افراداً مبعثرين كالاسكيمو على ثلوج القطب الشمالي ، كل ذلك في سبيل افراد قلائل منـــا يحبون ان يعلن عنهم انهم دخلوا مجالس النواب ، ثم لا يحضرون بعد ذلك تلك المجالس أبداً . على الشباب الواعي العاقل ان يدرك أن المرض مرض ، سواء أكانت العدوى من شخص غريب أم من شخص قريب .

وحينما ينزل مرض بالفرد فان اهله لا يفكرون في توزيع اموالهم وجهودهم بين تكاليف الحياة المختلفة ، بل يبذلون اول ما يبذلون من اموالهم وانفسهم في سبيل العليل حتى يشفى . وهكذا نحن اليوم يجب ان تكون رؤوس الاموال العربية رهناً بانقاذ « المريض العربي » ، وعلينا كلنا ان نقدم له المساعدة اللازمة . وكما ان على المقتدر ان يبذل في سبيل غير المقتدر منا بسخاء وبنفس طيبة ، فعلى غير المقتدر ان يتناول هـذا البذل بعقيدة وبنفس طيبة أيضاً .

ان الوطن العربي اليوم مريض بالمطامع الاجنبية ، فهل ترانا ننتظر موت مريضنا حتى نقيم له مأتماً حافلاً ، ام تجدنا مستعدين للتضامن في سبيل القضاء على المطامع ؟ ان الجواب في فم الشباب الذين لم تلوثهم خبرات الاستعمار بالامس ، ولا تغرهم كراسي المؤتمرات الدولية اليوم ، ولن تبهرهم وعود المستعمرين غداً.

ع . ف

# سير التاريخ في الوطن العربي

•

لم يعرف التاريخ بعدُ أمة نزل بها من المصائب ما نزل بالامة العربية، ولا شهد التاريخ الى اليوم أمة ألحّ عليها أعداؤها وخصومها بالحروب والاستعمار كالأمة العربية ؛ بل لم يعرف العالم - وأحسبه لن يعرف أبداً - أمة تنكّر لها نفر من أبنائها ، بعد أن أستنقذتهم من المستعبدين في تاريخهم القديم ، ثم أطعمتهم من جوع وآمنتهم من خوف ، كالامة العربية .

منذ أن انشق فجر التاريخ عن مطامع البشر قام بين أوروبة وبين آسية وأفريقية نزاع عنيف بل صراع مخيف وقف فيه الخصمان وجهاً لوجه أمام حقيقة واحدة : من يرث الارض وما عليها ؟ إننا اذا لم نوغل في التاريخ القديم لندرس تنقل القبائل البوبية بين آسية وأوروبة ، بل اكتفينا بان نبدأ بالقرن الخامس قبل الميلاد ، رأينا احشويرش الاول ملك الفرس يحمل جيشه واسطولا مؤلفاً من سبعمائة وخمسين سفينة حربية - أسطولا أكثر عدداً من الاسطول البريطاني - لينيخ بكلكله الأسيوي على صدر أوروبة .

واستيقظت أوروبة من هذه الصدمة الأسيوية بعد مائة وخمسين عاماً، وقام الاسكندر المقدوني بجر جيوشه في آسية خاصة حتى وقف

يبكي على نهر السند ، لأنه لم يستطع ان يقطع هـذا النهر الزاخر ليصل الى آخر الارض . ولكن آسية وأفريقية لم تكادا تستفيقان من هذا الحلم المزعج ثم تقلّصان ظل اليونان عن اطرافها حتى ذعرتا من مرأى الجيوش الرومانية تزحف ببطء لتلف بالاستعمار الروماني شواطىء البحر الابيض المتوسط .

وشاخت الامبرطورية الغربية في رومية فورثتها الامبرطورية الرومانية الشرقية في القسطنطينية ، وانتقل الشرق كله مع هـذا الارث المشؤوم من مالك قاهر متغطرس الى مالك ظالم متعسف .

الى ذلك الحين اكتفت شبه جزيرة العرب بان تقف وراء الصحراء المباركة تنظر الى الجيوش تغدو بابوابها ظافرة ثم تروح مهزومة من غير ان يجرؤ أحد على ان ينقل فوق رمالهـا خطوة واحدة . غير انه ما كاد القرن السابع للميلاد يطل برأسه على العالم الراسف في أغلال أوروبة حتى ارتجت تلك الصحراء بابنائها الذين انتشروا في الارض وقوضوا في عشر سنوات فقط دعائم امبرطوريات شيّدت وأيّدت في عشرة قرون كاملات .

ان هذا ليمرّ في خيال الرجل العادي وكأنه لغز من ألغاز التاريخ ومعجزة من معجزات الازمان . إنه لغز ، ولكنه لغز مستغلق فقط على الغافلين عن حقيقة الامة العربية . وهو معجزة ، ولكن في عيون الذين لم تهبهم بلادهم ما وهبته الصحراء لابنائها من الايمان الوطيد بالله وبالوطن وبالامة وباليوم الآخر .

وما الصفحات التالية القلائل سوى حل لهـذا اللغز ، وتبيان لهذه المعجزة . ثم تليها صفحات اكثر عـدداً غايتها أن تأخذ بيد

العرب من حاضرهم المظلم الى مستقبلهم البرّاق ، فتخرجهم من الظلمات الى النور . وتفتح عيونهم على امل فسيح وحياة منيعة مطمئنة .

## ١ . وحدة الارض

قف أمام الخارطة وتأمل أرض الوطن العربي من وادي دجلة في العراق شرقاً الى شواطىء افريقية على المحيط الاطلنطيقي غرباً ترَ في هذه الارض المترامية الاطراف وحدة جامعة قلّ ان رأيت مثلها في وطن من الاوطان .

لا تزال الحياة في أقطار الوطن العربي بدوية وحضرية معاً ، سواءٌ في ذلك شبه جزيرة العرب التي تبلغ مساحتها نحو ثلاثة ملايين كيلو متر مربع أو مصر التي تناهز مساحتها مليونا من الكيلو مترات المربعة أو لبنان الذي لا تزيد مساحته على عشرة آلاف كيلو متر مربع . ولا غرو فان العراق وسورية كلها جزء متمم جيولوجياً وجغرافياً لشبه جزيرة العرب. اما مصر فلا تختلف من ذلك كثيراً، فان البحر الاحمر الذي يفصل أفريقية عن آسية، أو يفصل مصر عن شبه جزيرة العرب إنما هو حدثٌ جديد في تاريخ الارض ، فالخصائص الجنسية واللغوية والحياة الاجتماعية الفطرية لا تختلف في شرقي أفريقية — في مصر والسودان والحبشة أيضاً — عما هي في غربي آسية ، في شبه جزيرة العرب نفسها وفي سورية والعراق . وما الرمال المتراكمة على شواطىء الجمهوريتين السورية

واللبنانية وعلى شواطىء فلسطين إلا تلالٌ ما زالت تزحف ببطء منذ أقدم الازمنة من سواحل الصحراء الكبرى في افريقية مارة في اعماق البحر الابيض المتوسط .

*

ثم ان رمال الصحراء المباركة قد صهرت اهلها فنفت منهم الضعف وخلقت منهم رجالاً أشداء في أجسامهم، أشداء في عقولهم، أشداء في ايمانهم ثم طبعتهم بطابع واحد. ولا غرو فان الارض الواحدة تخلق أمة واحدة . ان هذه الارض الواحدة قد ضمت اليها ابناءها، ابناء الوطن العربي على رغم الاستعمار الملحّ وستحتفظ بهم موحدين لانهم يستمدون وحدتهم من وحدتها .

## ٢ . وحدة الجنس

وكذلك الامة التي تسكن هذا الوطن العربي فانها أمة واحدة. إنها ترجع في مجموعها كله الى الجنس الذي نسميه « الجنس السامي » والذي كان يفيض موجات موجات وقبائل قبائل من قلب شبه جزيرة العرب . ثم ان حيوية هذا الجنس عظيمة جداً ، فقد استطاع ان يتمثل جميع الشعوب التي نزلت في الوطن العربي من غير الساميين في الاحقاب المتطاولة . أما أعظم فروع الجنس السامي فكان بلا ريب الفرعَ العربيّ ، ذلك الفرع الذي غمر سائر الفروع في صبغته وطغى على الشعوب الغريبة في هذا الوطن فجعلها كلها عربية الخصائص وان لم تكن عربية الاصل والمنتمى. ولقد انطوى في الامة العربية

شعوب فارسية ورومية ورومانية وتركية وفرنجية أيضاً فتعربت كلها ولم يبقَ ما يدل على أصل عدد قليل منها سوى اسماء تبدلت في اثناء التاريخ ولكن لم تقطع بعد صلتها بماضيها الغامض .

ومع انه ليس في العالم اليوم أمة ترجع كلها الى أصل واحد – اذا استثنينا زنوج أفريقية أو استرالية ثم الهنود الحمر في أميركة من الذين لم يستيقظوا على أصوات المدنية ولا ألفت أبصارهم بعدُ أنوار الحضارة – فان الامة العربية أصفى الامم جنساً وخصوصاً في بواديها . حتى المدنُ الكبرى في الوطن كبغداد ودمشق وبيروت والمدينة ومكة والقاهرة وطرابلس الغرب وتونس والجزائر ومراكش وفاس ، فانها أصفى جنساً وأشدّ وحدة من برلين وباريس ولندن ورومية ونيويورك . وإنك حيث اتجهت اليوم في هذا الوطن الكبير لا تسمع ، فيما يتعلق بحديث القومية ، إلا كلمة واحدة : نحن العرب .

## ٣ . وحدة اللغة

وقد يسبق الى وهمك أن هذا الفصل لا محلّ له من البحث ؛ ثم تقول : الا تتكلم امم العالم المختلفة لغة واحدة كالامة العربية سواء بسواء . انك ستعجب ولا ريب اذا اخبرتك ان في بلجكة التي تعد سبعة ملايين من الانفس ، أي عُشر عدد العرب ، لغتين تصطرعان اصطراع الموت : اللغة الفرنسية واللغة الفلمنكية ( او لهجة من الفلمنكية على الاصح ) ، وان هاتين اللغتين رسميتان في الحكومة

والمدارس والجرائد والبيوت . وليست فرنسة أحسن حظاً ، فابن شرقي فرنسة لا يفهم ما يتكلم به ابن غربيّها ، وكلاهما لا يفهمان لغة باريس إلا اذا تعلماها كما نتعلم نحن اللغـــة الاجنبية أو قريباً من ذلك .

اما ابناء شمالي ايطالية فيتكلمون الالمانية في بيوتهم . واما بريطانيا العظمى ففيها الانكليزية والايرلندية والولشية ، ثم لهجات بـــين ذلك كثيرة . وليس من الضروري ان أذكر لك ان في الروسية عشرات اللغات – لا اللهجات – ، وأن في الهند والصين لغاتٍ ، ولهجات مشتقة من هذه اللغات ، تزيد على العشرات .

ثم إن هناك أمراً آخر أشد غرابة في رأي العربي من هذا ، ذلك أن اللغات التي يتكلمها الاوروبيون اليوم ليست اللغات التي تكلمها آباؤهم الاقربون ، فالالمانية والافرنسية والايطالية لم تكتب إلا في القرن السادس عشر ، وان اللغات التي سادت هذه البلاد في القرن الخامس عشر كانت لغاتٍ بعيدة في كل شيء عما يألفه الافرنسيون والايطاليون والالمانيون اليوم .

فاذا انت ألممت بهذا القدر اليسير من حال اللغات في العـــالم الغربي ثم علمت ان الكتاب العربي الذي يوضع اليوم في بغداد يقرأ في تطوان ورباط الفتح على بعد ستة آلاف كيلومتر من مكان طبعه ، وان هذه اللغة التي نتكلمها اليوم هي – بمفرداتها وتراكيبها وصرفها ونحوها وبلاغتها – لغة العصر الجاهلي ادركت أية وحدة لغوية تربط العرب في حاضرهم ثم تربطهم بماضيهم . فان الاوروبي اذا درس اللغة العربية ثم علم ان عبيد بن الابرص الذي عاش منذ

ستة عشر قرناً قد قال :

من يسأل الناس يحرموه وسائل الله لا يخيب

امتلأ عجباً واخذته الدهشة ، ذلك لان قومه كانوا يتكلمون منذ ستة قرون فقط لغة لا صلة لها بلغتهم اليوم .

ومنذ ذلك الزمن الموغل في القدم كانت اللغة العربية السائدة في شبه جزيرة العرب لغة واحدة . فقد كان حسان بن ثابت الحجازي يأتي قبل الاسلام الى حوران في سورية ليمدح ملوك الغساسنة بلغة الحجاز :

بيض الوجوه كريمة احسابهم شم الانوف من الطراز الاول

وكذلك كان النابغة النجدي يأتي الى المناذرة في العراق والغساسنة في الشام ليمدحهم جميعاً بشعر نفهمه نحن اليوم ايضاً في الحجاز والعراق والشام ومصر والمغرب الاقصى سواء بسواء . ولا حاجة بنا الى ان نستدرك على ان القرآن الكريم قد زاد هذه الوحدة اللغوية القديمة قوة على قوتها .

*

وربما زعم زاعم ان ابناء السواد في العراق يتكلمون لهجة لا يفهمها ابناء الريف في مصر او في المغرب . ان هذا الاعتراض يبدو لاول وهلة وجيهاً ، ولكن فيه مغمزين ، درسها الدارسون ، ثم خرجوا من دراستها بما يلي :

أ — ان في هذه اللهجات كلمات قلائل اجنبية ولكنها ليست بذات خطر ، ثم انها تقل مع انتشار العلم واتساع الروح القومي في الوطن العربي . من ذلك مثلاً ان « القفل » قد يقال له في المغرب

« اللوبة » . ومع ان هذه الكلمة متداولة بين غير المثقفين في الاكثر فاننا اذا فتحنا المعجم العربي رأينا لهـذا الاستعمال وجهـاً قريباً . ومثل هذا يقال في كلمات كثيرة تتسرب الى اللغات فاما ان تصقلها الالسن فتصبح من نسيج تلك اللغة ، واما ان ينبـذها الاستعمال فتموت . وليس هذا بقادح في عبقرية اللغة شيئاً ، فان في اللغات التي ينشر المستعمرون حسناتهـا ويختلقون كثيراً من فضائلها كالانكليزية والافرنسية والايطالية مئات من الكلمات تسربت اليها من اللغات المختلفة . فان في اللغة الانكليزية مثلا ما يزيد على اربعمائة كلمة من اللغة العربية وحدها قد دخلت في لغـة العلم والادب والتخاطب ايضاً .

ولقد لفت نظري في اثناء دراستي اللغة العربية الفصحى ، ومـا فيها من لهجات ، ظاهرةٌ غريبة جداً ، ذلك لانها ظاهرة فريدة فيما اعرف من خصائص اللغات : يجتمع بعض العرب على جدال سياسي او ديني او علمي او ادبي ، وكثيراً ما يتفق انهم يبدأون جدالهم بلهجة عامية أو قريبة من العامية . فاذا حمي وطيس الجدال قصّرت اللهجة العامية عن التعبير ، فانقلبوا الى اللغة الفصحى المعربة يتابعون بها جدالهم .

ب - وهنـالك الفاظ عربية يظنها الذي يعوزه التأمل غريبةً أو أجنبية أو عامية في الاغلب ، ولكنهـا كلها صحيحة بشهادة كتب اللغة :

يقول العراقي في حديثه العادي : سد الباب ،

ويقول المغربي في حديثه العادي ايضاً : شد الباب ،

اما الشامي فيقول : سكّر الباب .

وكل هذه بمعنى ولها وجه صحيح من الاستعمال القاموسي . ومع هذا كله فان العراقي والمغربي والشامي جميعهم اذا تعلموا وتثقفوا عدلوا عن هذه الاستعمالات الاقليمية ، حتى في احاديثهم العادية .

والغريب في وحدة اللغة العربية ان اللهجات في اللغات الاجنبية تأخذ عادة مكان اللغة الام . فان اللهجات الافرنسية والايطالية والاسبانية والبرتغالية قتلن امهن اللغة اللاتينية وتفرقن مكانها في البلاد ، بينما اللغة العربية الفصحى لا تزال مسيطرة على كل لهجة اشتقت منها . من اجل ذلك تفسخت اللغة الجرمانية مثلا عشرات اللغات واللهجات : كالالمانية والهولندية والدنمركية والاسوجية والنروجية والانكليزية والايسلندية ، هذا اذا لم نذكر الفلمنكية ولغة شليزفك وهولشتاين وسواهما من اللهجات المكتوبة او المحكية فقط .

اما اللغة العربية فانها لم تزل واحدة منذ اقدم عصورها الى اليوم وستظل - اذا قسنا الآتي بالماضي - كذلك الى الأبد .

## ٤ . وحدة التاريخ

إذا أردنا ان نرجع بالتاريخ الى أبعد عصوره وجب ان نقسم البحر المتوسط قسمين اثنين : الحوض الشرقي والحوض الغربي . على ان التاريخ القديم كان يجري في حوض واحد منهما ، في الحوض الشرقي الممتد من ايطالية شرقاً الى فارس والسند . اما الحوض

الغربي الممتد من ايطالية غرباً الى المحيط الاطلنطيقي فكان قليل الاهمية بالاضافة الى صنوه الحوض الشرقي .

جرى التاريخ القديم في شرقي البحر الابيض المتوسط مجرى واحداً . فكل امبرطورية نشأت في بقعة من هذا الحوض تناولت الحوض باجمعه إما مباشرة كالامبرطورية الاشورية والفارسية واليونانية، وإما غير مباشرة كالامبرطورية المصرية والبابلية الاولى والكلدانية ، أو البابلية الثانية. على ان الحوض الغربي لم يكن - حتى في ذلك الزمن الموغل في القدم - بعيداً عن المشرق. ويكفينا ان نذكر ان ابناء صور من الفينيقيين قد اقاموا المحطات التجارية في شمالي افريقية وجنوبي اسبانية على الساحل الاوروبي ، وأقاموا هنالك دولة ايضاً قارعت اليونان وقارعت رومية في إبّان زهوها .

وخرجت اعلام الاسلام بالفتح العربي فملأت ما بين المشرق والمغرب، وأحاط ذراعا الاسلام بالبحر الابيض المتوسط من شرقيه ومن غربيه . ثم برزت الدول الاسلامية في التاريخ يتلو بعضها بعضاً ، فحكمت الدولة الاموية هذا الوطن العربي كله ؛ وخلفتها الدولة العباسية فضمت اليها هذا الوطن باجمعه من أقاصي افريقية الى العراق والى ما وراء العراق .

حتى الدويلات الاسلامية كانت تحتضن هذا الوطن العربي وتشعر انها مسؤولة عن الدفاع عنه . ففي عام ٢٦٤ هـ ( ٨٧٧ م ) انتهز الروم اشتغال الخليفة الموفق في بغداد بالاضطراب الداخلي فغزوا الشام ؛ فسار اليهم احمد بن طولون - والي مصر ومؤسس الدولة الطولونية فيها وحاربهم وهزمهم الى ما وراء الاسكندرونة

وملك ما بين مصر الى الموصل . وكذلك الدويلة الاخشيدية نشأت في مصر ثم مدت سلطانها على هـــذه البلاد كلها ، فلما مدح المتنبي كافوراً الاخشيدي في آخر رمضان سنة ٣٤٦ ( آخر ٩٥٧ م ) قال فيه :

يدبر الملك من مصر الى عدن  الى العراق فارض الروم فالنوب

فدل على اتساع ملك كافور من أرض مصر الى النوبة جنوباً – وهي مقاطعة بين مصر والسودان – ثم إلى عدن في اليمن ثم شمالاً الى العراق فغرباً الى بلاد الروم ( آسية الصغرى ) . ولقد ضم ملك الاخشيديين طبعاً ما بين هـــذه البلاد التي عددها المتنبي كالحجاز والشام كلها ( سورية ) .

ولما نشأت الدولة الحمدانية ، وجاء أعظم رجالها سيف الدولة بن حمدان عام ٣٣٣ هـ ( ٩٤٤ م ) ، امتد سلطانها على العراق وعلى القسم الاعظم من الشام ، بينما كانت عاصمتهم في حلب في شمالي سوريـــة .

اما الدولة الفاطمية فقد غطت في ذلك على كل دولة قبلها ، اذ امتد سلطانها من المحيط الاطلنطيقي الى البحر الاحمر ثم الى الحجاز فالشام . ولقد حاول الفاطميون الاستيلاء على بغداد . وهكذا يكونون قد حكموا هذا الوطن العربي كله زمناً طويلا يمتد ثلاثة قرون من ٢٩٦ إلى ٥٦٧ هـ ( ٩٠٩ – ١١٧١ م ) .

ولما هاجم الصليبيون سورية عام ٤٩١ هـ ( ١٠٩٧ م ) اهتز الوطن العربي كله للدفاع عنها . وأدرك الاوروبيون ذلك ففتحوا ثلاث جبهات كبرى : جبهة الشام في أقصى الشرق ، وجبهة مصر

في أوسطه ، ثم أغاروا على المغرب وفتحوا فيه جبهة ثالثة . كل هذا ليشغلوا بعض الوطن العربي عن بعضه الآخر ، وليفككوا جهاز الدفاع فيه .

ثم ضعف أمر الفاطميين في مصر وتمكن الصليبيون من الوصول إلى القاهرة عام ٥٦٤ هـ ( ١١٦٨ م ) ، فادرك القائد العظيم صلاح الدين الايوبي ان المنطق يقضي بتوحيد الدفاع عن الوطن العربي ولو أدّى ذلك الى القضاء على الدولة الفاطمية ، فالوطن فوق الدول والامة فوق الافراد . ولما ضرب صلاح الدين الصليبيين في حطين الضربة القاضية في صيف ٥٨٣ للهجرة ( تموز ١١٨٧ م ) استطاع ان ينقذ الوطن العربي وان يغسل عنه آثار البربرية الغربية .

*

ولا أريد أن أستمر في تحليل أدوار التاريخ لادلّ على ان هذا الوطن العربي النبيل كان دائماً وحدة تاريخية ، فان ذلك معروف لانه قريب من عهدنا . على ان آخر ما يمكن الاستشهاد به في هذا الموقف ان الحلفاء في الحرب العالمية الثانية ضموا الوطن العربي الى الشرق الاوسط واعتبروا أن نجاح قضيتهم لا يتم الا اذا عاملوا العراق والشام وبلاد مصر والمغرب أيضاً على أنها كلها ساحة حرب واحدة . لقد بدأ الجيش البريطاني هجومه الكبير على قوات المحور في افريقية يوم ٢٤ تشرين الاول عام ١٩٤٢ ، وبعد خمسة عشر يوماً نزلت القوات الاميركية في مراكش .

وهكذا نرى ان الوطن العربي كان في التاريخ كله وحدة واحدة فيما يتعلق بالسياسة وبالحرب ايضاً .

## ٥ . وحدة الثقافة

ان الامة التي تتمتع بوحدة الوطن ووحدة الجنس ووحـــدة اللغة ووحدة التاريخ تتمتع ايضاً بوحدة الثقافة .

لكل امة حياة مادية تبعث عليها حاجات الجسد الطبيعية من مأكل وملبس ومسكن وما الى ذلك ، ثم حياة ثقافية تضفي على الحياة الطبيعية نفسها جواً روحياً . ان الانسان لا يعيش اذا لم يأكل ، وهو في ذلك لا يختلف من الحيوان البتة ، ولا يرى من الحياة الا استمرار وجوده الفردي على وجه الارض . ولكنه حينما يبدأ بالاكل على طراز خاص يأخذ بالاختلاف من الحيوان وبأن يرى للحياة أوجهاً جديدة ... وكلما تعددت أوجه الحياة في امـة زادت قيمة الحياة في نظرها ، فالامة الـــتي تعرف العلم والفن والادب تكون ارقى في سلم الثقافة من الامم التي تجهل هذه كلها او تجهل بعضها فقط . ثم اذا زاد إتقان امة لوجه من هذه الاوجه ايضاً زاد رقيها واتسعت دائرة ثقافتها .

*

ونحن لا يهمنا ان نصور مبلغ ما وصل اليه العرب من أوجـه الثقافة في ماضيهم وحاضرهم ، بل يهمنا فقط ان ندل على ان العرب كلهم في جميع اقطارهم كانوا وما يزالون يتذوقون هـذه الاوجه من الثقافة تذوّقاً واحداً .

لنأخذ الشعر مثلاً :

لقد كان العرب في الحجاز ونجـد واليمامة ( شرقي شبه جزيرة

العرب ) ثم في العراق والشام يطربون للمعلقات ، ولقد كان الشاعر الواحد كالنابغة الذبياني يتنقل من نجد الى العراق الى الشام فيفهم العرب عنه - واعني هنا الفهم الادبي - كل ما يقوله . ثم انتشرت اللغة العربية في اقطار العالم فاذا نحن اليوم في كل مكان نتذوق شعر امرىء القيس وعنترة وبشار وابي نواس والمتنبي... وأندادهم تذوقاً متشابهاً او تذوقاً واحداً على الاصح .

واذا خرجنا من الشعر الى الغناء – والغناء باب من ابواب الشعر - رأينا العرب في اقطارهم المختلفة يتغنّون بالاغاني القديمة والحديثة ويطربون لها طرباً واحداً . وقد يأخذك العجب حينما ترى ابن الشام مثلاً يتغنى بالاغاني الشعبية العراقية والمصرية ثم لا يقل طربه عن طرب ابن العراق وابن مصر . وما يقال عن الشعر والغناء يقال عن الفن والعلم ، وعن اللهو والاعياد ، وعن سائر العادات التي ألفناها في حياتنا اليومية ، إن في ذلك لدليلاً عظيماً على أن ثمّت جامعةً من الثقافة تلف العرب كلهم في جوّها وتجمع بين سبعين مليوناً من السكان ،في بلاد مساحتها عشرة ملايين كيلومتر مربع او تزيد ،في جامعة ثقافية واحدة . انّ هذا شيء لامثيل له في في بقعة من بقاع العالم السياسية ولا الطبيعية .

وشاء الغرب المستعمر أن يفرق ثقافات الوطن العربي،وحاول ذلك فعلاً ولكنه لم ينجح . لقد شاء المستعمر أن يخلق حركة بربرية في المغرب وحركة فرعونية في مصر وحركة فينيقية في الجمهورية اللبنانية وحركة أشورية في العراق. وتقوم هذه الحركات على أن تترك هذه الاقطار عروبتهاوتعود الى بعث مدنياتها القديمة:

فيرجع المصري الى حياة اجتماعية وفكرية فرعونية ، واللبناني الى حياة اجتماعية وفكرية فينيقية ... ولكن هذه المحاولات لم تنجح لسببين أساسيين ، أولهما أن بعث ثقافة ميتة أمر مستحيل ، فكيف يمكن للمصري المسلم أن يرتدّ وثنياً ؟ وكيف يمكن أن يرجع الى اللغة القديمة التي اندثرت ؟ وكيف يستطيع أن يعود الى حياة اجتماعية قد وطئتها الحضارة الحديثة؟ بل كيف يتيسر له أن ينقهقر الى حياة فكرية كانت نتاج عهد يبعد عنا عشرة آلاف عام أو خمسة آلاف عام ؟ لقد كانت الحضارة الفرعونية – ولنسمها كذلك – حضارة راقية كل الرقي بالاضافة الى زمنها ، وبعض الرقي بالاضافة الى زمننا ، ولكن في النواحي المنزوية من الحياة . من أجل ذلك لم يكتب للفرعونية أن تعيش في مصر . وعلى هذا القياس لم تستطع الفكرة الفينيقية أن تتنشق الهواء في لبنان . ومثل ذلك كان نصيب الآشورية والبربرية من الحياة .

وثاني السببين أن المستعمر هو الذي استخدم بعض الاقلام لنصرة هذه الحركة الرجعية المنكرة . ومع أن بعض أصحاب هذه الاقلام كانوا من النخبة البارزة أحياناً ، فانهم كانوا أيضاً من أولئك الذين جُذِبوا الى نصرة تلك الفكرة ببريق الأموال ، ولكنهم لما أدركوا أن هذا المال يتأتى لهم من وجه آخر اقلعوا عن هذا الوهم إما اقتناعاً واما اتجاراً . وعلى كل فقد ماتت النزعات الفرعونية والاشورية والفينيقية على يد الذين بعثوها من أكفانها ، وكفى الله المؤمنين القتال . ولكن قد بقي لهذه الدعوة الرجعية أثر يحتضر في « راديو الشرق » – الذي سموه منذ عهد قريب « محطة الاذاعة

اللبنانية » – حيث لا يزالون يعلقون المستمعين الكرام أغاني بلدية ولغة عامية ليس وراءها كلها غاية إلا خلق ضجة منكرة في حواشي الثقافة العربية الخالصة .وما دام الذين يسيطرون على راديو الشرق اليوم هم الذين سيطروا عليه بالامس ، فان برامجه لن تتغير ، ولو سموه « محطة الاذاعة العربية ! » .

انني أريد أن أسدي نصيحة الى وطني الصغير الجميل : أبعدوا الغربان السود عن ميـــدانكم الثقافي لان الغربان لا تجتمع إلا على الجثث ، وإن أعجب من شيء فعجبي منا نحن في لبنان ننزل عـلى الرحب والسعـــة أقواماً نفاهم أهلهم وتبرأوا منهم . ان العظمة القومية لم تتحقق في فرنسة وايطالية واسبانية إلا بعـد أن خرج منها « غربانها السود » .

## ٦ . وحدة الشعور

لقد حاول الاستعمار أن يجعل الوطن العربي بلقاناً ثانياً ، أعني دولا صغيرة تتناحر وتتقاتل عبر حـــدود ضيقة متشابكة فتلتهي بذلك عن كل تقدم ورقي ، ويتاح للمستعمر حينئذ أن يحكمهـــا سياسياً وثقافياً ، حتى يتمكن من السيطرة عليها أقتصادياً . وكل نوع من أنواع السيطرة الاستعمارية فانما غايته القصوى الاحتكار الاقتصادي في البلاد المحكومة .

لا يزيد سكان شبه جزيرة البلقان اليوم على ثلاثين مليوناً أي أقل من نصف العرب في العالم . ومع ذلك فان هنالك اليوم من

الدول البلقانية تركية ( الاوروبية ) ورومانية وبلغارية والبانية واليونان ويوغوسلافية ، وقد كانت يوغوسلافية وحدها مشقوقة قبل الحرب العالمية الاولى ثلاث دول : دولتين مستقلتين هما الجبل الاسود وفيه من السكان مائة وتسعون الفاً فقط أوما يعادل نصف سكان مدينة كبيروت وخمس سكان مدينة كالاسكندرية ، ثم الصرب . وبعدئذ تأتي مقاطعتا البوشناق والهرسك ، وقد كانتا خاضعتين للاستعمار النمسوي المباشر .

على أن السياسة الاستعمارية قد نجحت في البلقان لاسباب مختلفات ، منها تعدد الأجناس والاديان واللغات ، ومنها - في رأس كل هذه - الافساد الاستعماري للشعوب الضعيفة الغنية . اما في الوطن العربي فان المستعمر لم ينجح نظرياً في تطبيق هذه السياسة ، وان كان قد نجح عملياً الى حد كبير . ان المغرب على الرغم من خضوعه العملي المطلق لفرنسة منذ نيف ومائة عام لا يزال عربياً في شعوره تهمّه أخبار البصرة كما تهم ابن بغداد . وإن جميع العنف الذي أنزلته فرنسة في المغرب من ادناه في تونس الى اواسطه في الجزائر الى اقصاه في مراكش ، لم يستطع أن يحوّل ذلك القطر عن شعوره قيد أنملة . وإن كل ما نزل في المشرق من الشعوب الغربية وما نزل به من ضروب الاستعمار لم يَحُلْ بينه قط وبين الشعور بان ابن الدار البيضاء ورباط الفتح والجزائر وتونس أخٌ شقيق لابن مصر والشام والعراق ، بل أخٌ لكل عربي تحت كل كوكب من كواكب السماء في هذا العالم الفسيح الارجاء .

ولو أحببت أن أضرب على ذلك الامثال لضربت امثالا كثيرة

ولكنني ساجتزىء بالمشهور البارز ، وبالمعاصر فقط .

ان اعظم قضية ظهر فيها شعور العرب كلهم موحداً انما هي قضية فلسطين . ان كل عربي ، حيث كان من هذا الوطن المترامي الاطراف ، يشعر بأن فلسطين بلده وقطعة من وطنه ، وان المجاهدين الذين ما زالوا يبيعون أموالهم وانفسهم في سبيل فلسطين ليسوا عرب فلسطين وحدهم بل هم « العرب » في كل مكان . ولجان الدفاع عن فلسطين ، مبثوثة اليوم في جميع اجزاء الوطن العربي ، حتى المهاجرون النبلاء ، المتفرقون في اوروبة وافريقية واميركة ، يتفانون في سبيل فلسطين العربية كالعربي الذي يعيش في القدس ونابلس ويافا سواء بسواء .

ولما اضطر اسد العرب الحاج أمين الحسيني أن يهاجر في سبيل فلسطين تلقته الاقطار العربية وانزلته منزلا كريماً لا على انه لاجىء أو جار أو ضيف عابر ، بل على انه زعيم عربي لحركة يؤمن بها كل عربي ، وعلى ان الواجب القومي يقضي ان تعتبر قضية فلسطين في كل قطر عربي « قضية داخلية ملحّة » . ولقد نزل الحاج امين الحسيني بعد ان اضطر الى مغادرة فلسطين في مطلع الحرب العالمية الثانية في لبنان وفي العراق ، فلم ينزل في اهله واخوانه فقط بل في جنده ورجاله . وانتهت الحرب العالمية الثانية او كادت وغادر الحاج امين الحسيني فرنسة الى بلاد العرب ، وشاء الاستعمار الغاصب ان يمنعه النزول في فلسطين فكان له في مصر وفي رعاية فاروق الأول اكرم دار وآمن جار .

وفي ايار من عام ١٩٤٥ حينما كشف العدوان الفرنسي الغاشم

عن وجهه والقى قنابله المجرمة على سورية الآمنة هبت الاقطار العربية هبة الرجل الواحد لا للمؤاساة ، فان الجرح لم يكن جرحاً غريباً ، بل للدفاع عن النفس ورد الخصم عن الوطن. وتوافد الاطباء والممرضون من العراق ولبنان ومصر يحملون العلاج والاموال ، ويحملون « الشعور العربي » ليضمدوا به الجراح في سورية ويغسلوا الدم الجاري .

وقبل ذلك عدا الافرنسيون على لبنان واعتقل المستعمر نفراً من رجاله وقتل عدداً من ابنائه واراد ان يقضي على استقلاله . فثار العراق وثارت سورية وثارت مصر لذلك وتدفقت الاموال ، وكاد الرجال ان يتدفقوا ايضاً ، وكانت وقفة ارتد بها المستعمر على عقبيه ونجا استقلال لبنان . ولو ان الاقطار العربية ارادت ان تعاتب بعض ابناء لبنان على « دلعهم » الماضي وعلى نياتهم المقبلة لعاتبتهم ، ولكن القضية يومذاك — وفي كل يوم — هي قضية « وطن » لا تعترضها هنات كالتي يقوم بها بعض الاطفال هنا او هنالك .

ومنذ نزلت الكارثة بطرابلس الغرب عام ١٩١١ — أي منذ جيل كامل من الدهر — والكفاح لاسترداد حرية الطرابلسيين السليبة في كل قطر عربي كأشد ما كان يوم نزلت تلك الكارثة .

واذا اخذت صحف العالم العربي اليوم رأيت قضية المغرب تحتل في كل أزمة مركزاً بارزاً في صدر تلك الصحف كأنها قضية داخلية محلية في كل جزء من اجزاء هذا الوطن العربي . فالثورة على « الظهير البربري » ( المرسوم الذي ارادت فرنسة ان تقطع به

المغرب من جسم الوطن العربي ) كانت اشد في مصر والشام منها في المغرب نفسه لمكان الحرية هنا ومكان الاضطهاد الشديد هنالك .

## ٧ . وحدة الاماني والاهداف

اذا كان التاريخ قد جرى هذا المجرى الموحّد في الوطن العربي منذ أقدم الازمنة الى اليوم ، فلا ريب في انه سيتابع سبيله موحداً بعد اليوم أيضاً . كل ذلك لأن أماني العرب في جميع اقطارهم ، ولأن أهدافهم كذلك ، واحدة .

ان وحدة الاماني والاهداف أشد تأثيراً في توحيد ابناء الوطن الواحد من وحدة التاريخ ، ذلك لأننا قد رأينا في التاريخ امماً كثاراً تشعبت شعوباً . وقلّ ان رأينا شعوباً توحدت أمةً الا على غلبة وقسر كالامة البريطانية التي تألفت من الشعب السكسوني بعد امتزاجه بالشعب النورماني واستيلائه على الشعب الولشي والشعب الايرلندي والشعب الاسكوتلندي . ولكن في عام ١٩٢٢ انشق الشعب الايرلندي وانشأ دولة مستقلة في كل شيء عن بريطانية العظمى . ولما نشبت الحرب العالمية الثانية لم يكن موقف الارلنديين يسر البريطانيين على الاطلاق .

*

على ان العوامل التي فرقت الامم العربية شعوباً كانت مختلفة الاهواء متباينة الاهداف ، بينما العرب كانوا وما يزالون ولن يزالوا يؤمنون بهدف واحد يكدحون اليه في وجه المصاعب التي يخلقها

لهم الاستعمار .

ان البلاد العربية اليوم مختلفة في درجة استقلالها ، فهنالك الجزائر المستعبدة ومراكش وتونس وفلسطين المغلوبة على أمرها . ثم هناك سورية ولبنان ، ثم هنالك المملكة السعودية والمملكة المصرية والمملكة العراقية . هذه الاقطار المستقلة مستقلةٌ دستورياً استقلالاً تاماً لا يقيده سوى أمرين عامّين في الدول المستقلة كلها ، ما تفرضه الصلات الدولية ، ثم ما تخضع له الدولة من قوة وضعف .

لا يشك احد في ان بريطانية – مثلاً – دولةٌ مستقلة . ولكن بريطانية لا تستطيع ان تسلك سلوكاً عُرفياً مطلقاً في وجه الدول التي هي مثلها او اقل منها قوة ايضاً . ان الصلات الدولية المتشابكة تقضي على بريطانية – لاسباب سياسية واقتصادية وروحية أيضاً – ان تحاسن فرنسة وهولندة والارجنتين ورومانية ، وسورية ، وإن كنّ كلهن اضعف منها . انها تفعل ذلك احتياطاً للمستقبل ، ذلك لان الحروب لن تنجيَ من الارض ، ولذلك لم تكف الدول الكبرى عن تألف الدول الصغيرة ، وهذا جَرحٌ عظيم لاستقلال كل أمة في الارض .

*

فاذا كانت الامم المتباينة في الاوطان والاجناس واللغات ترى ان تستعين بأهداف مختلفة لتتوحد كلها في سبيل واحد ، فكيف لا تكون الامة العربية ، ولها وطن واسع ولغة واحدة وانتماء الى جنس واحد ، موحّدة الاماني والاهداف ؟

للعرب هدفان : التملص من السلطة الاجنبية تملصاً تاماً ، ثم

التكتل على شكل من الاشكال يجعل من هـذا الوطن العربي الممزق بين الاقوياء الطامعين به قوةً تتحدى كل استعباد جديد وكل ظلم مقبل . ولقد نجح العرب الى حد بعيد حينما انشأوا جامعة الدولة العربية .

وفي عام ١٩٤٢ بدأت في مصر « مشاورات للوحدة العربية ». ولكن قسماً من سكان الجمهورية اللبنانية خافوا من التسمية فأبدلت في سبيلهم وجعلت « جامعة الدول العربية » ، فصدق عليها المجلس النيابي في الجمهورية اللبنانية بالاجماع في الخامس من نيسان سنة ١٩٤٥ .

وجامعة الدول العربية – باسمها الجديد ومع كل ما يمكن ان تثير من التشاؤم والتفاؤل – خطوة غير منكورة في سبيل توحيد العمل لبلوغ الاهداف التي ما زال العرب يتطلعون اليها منذ اعلن الشريف حسين بن علي الثورةَ العربيةَ عام ١٩١٦ : التملص من الطغيان الاجنبي ، ثم خلق مجموع عربي قوي يتحدى كل طغيان ممكن في المستقبل .

ان الدول العربية أخوات كثار يسكُنّ غرفاً متعددة في بيت واحد، وليس من الضروري ان يَهدُمنَ الجدران التي تفصل ذلك البيت غرفاً ما دام شعورهن يخترق تلك الجدران ويغمر البيت كله بجو من الاخاء ومن التعاون يجعل منهن في الحقيقة يداً واحداً في سبيل خيرهن وقبضة واحدة في صدر عدوهن .

لقد نظرنا حتى الآن الى الماضي وحللنا العناصر التي وحدت الوطن العربي وجعلته قوياً عظيماً . ولكن هذا الوطن نفسه قد

اصبح اليوم ضعيفاً مفكك الاوصال بالاستعمار . فما السبل التي نستطيع ان نسير عليها حتى يعود العرب سيرتهم الاولى من القوة والعظمة والفلاح ؟

هذا ما سأعنى بتحليله في القسم الباقي من هذه الرسالة .

# التعاون والاهداف القصوى

•

كانت عظمة الوطن العربي قائمة دائماً على تلك الصلة المتينة التي ربطت بعض الاقطار العربيـــة الى بعض . ولكن اوروبة قد حاولت ، منذ ان ذرّ الاستعمار قرنه في العالم ، ان تقطع أوصال هذا الوطن وان تحول بين اتصال ابنائه بوسائل شتى. ولقد نجحت اوروبة في ايجاد حواجز مادية بين الاقطار العربية ولكنها لم تستطع ان تمنع الصلات الروحية قط .

من اجل ذلك سأترك الكلام على الصلات المادية كالتجـــارة والصناعة والسياسة وما اليها ، ذلك لان هذه قد تفككت فعلاً ، ولا يمكن ان تنفع العرب الا اذا عادت الى وحدتها الاولى ، وهذا امر غير متيسر في وقت قصـــير . الا انني سأجعل كلامي كله في الناحية الروحية ، تلك الناحية التي لم يستطع الاستعمار منذ ثلاثمائة عام الى اليوم ان يخضعها لطغيانه فيخفض من قيمتها في بناء الوطن العربي الاكبر . وأول اوجه الناحية الروحيـة التي تهمنا – تهمنا لانها في متناول البحث والاصلاح – « الثقافة » . على ان الثقافة ايضاً حقل واسع ينطوي فيـــه الفن من موسيقى ورسم ونقش وتمثيل ، ثم الادب نثراً ونظماً ، ثم الحيـــاة وما فيها مما لا تمكن

معالجته في رسالة مقيدة بالصفحات مثل هذه . ولكن الثقافة كلها تقوم على التعليم ، ولذلك سأقصر بحثي على هذه الناحية فقط .

*

حينما بدأت اوروبة تستيقظ في اواخر العصور الوسطى وتتناول العلوم والفنون من العرب او تزيل الغبار عن علوم اليونان وفنون الرومان . كان العرب انفسهم قد اخـــذوا يغرقون في نوم عميق ولكنه غير هادىء ولا هنيء . ولما ايقظهم ضجيج المدنيـــة المادية الاوروبيـــة فتحوا اعينهم مشدوهين ببرأى الآلات والادوات ووقفوا على جانبي طريق التاريخ يشهدون موكب الحياة المادية يسير بسرعة عظيمة . لقد كان البون بين ما وصل اليه الغرب في الحياة المادية وبين ما ورثه العرب من هذه الحياة عظيما ، عظيما حتى انه ليقاس بمئات السنين ان لم نقل بالوفها . اننا الى الآن لا نزال قانعين حتى في اعظم مدننـا وعواصمنا بوسائل نقل تنقل احدنا من مكان عمله الى بيته في ساعة او نحو ساعة بينما الاوروبي يفكر في الطائرة الصاروخية التي تقطع مئات الاميال في ساعة واحدة .

فماذا يجب ان نفعل حتى نلحق بموكب المدنية المادية ؟

ايجوز ان نمر في جميع الادوار التي مرت بها اوروبة حتى بلغت مبلغها الحاضر في الرقي : أننتظر ثلاثمائة عام حتى نصل الى ما وصلت اليه اوروبة اليوم ؟ وهب اننا فعلنا ، فالى أين ستصل اوروبة بعد هذا العدد العظيم من السنين ؟

يجب علينا ان نختصر الطريق ونقفز الى حيث وصل موكب المدنية المادية اليوم ثم نحاول ان نرافقه خطوة خطوة .

على أن هـــذا لا يتيسر فيما لو حاول كل قطر عربي أن يفعله مستقلاً عن اخوانه مستبداً برأيه ، فيجب أن تتعاون هذه الاقطار إذن في سبيل تحقيق غاياتها واهدافها .

هذا التعاون يجب أن يكون على أساس وطيد ثابت ، يجب أن يكون تعاوناً حقيقياً : يجب أن يقدّم كل قطر لسائر الاقطار ما يستطيع أن يقدمه ، وأن يأخذ منها كلها ما يحتاج اليه مما تملكه هي. يجب ألا يكون هذا التعاون صدقة بل مقايضة .

لنلتفت الآن الى ما حولنا ولننظر في حـــال كل قطر عربي لنعرف ما يستطيع أن يقدمه في سبيل العرب . ثم لننظر أيّ هذه الاقطار يستطيع أن يمثل الدور الاول في هذه الحركة العظيمة .

لكل قطر من الاقطار العربية — اذا اعتبرنا مساحـة الارض وعدد السكان والثروة الاقتصادية على الاخص - خصائص يستطيع أن ينتفع بها وينفع سائر الاقطار .إلا اننا اذا بحثنا عن قطر يجمع في نفسه خصائص كثيرة وامكانيات عملية وجدنا ان الواجب الأول يقع على عاتق مصر . فاذا اتسقت خصائص مصر وخصائص البلاد العربية في اتجاه واحد وولت جهودها شطر غاية واحـدة استطاع الوطن العربي أن يبلغ في مدة غير طويلة أقصى أهدافه .

لقد ساعد التاريخ مصر ومكنها من التقدم الفني والمادي تقدماً أكبر من ذلك الذي حققته سائر البلاد العربية فالقى بذلك عـلى عاتق مصر واجباً مقدساً في بذل هذا التقدم الفني والمادي في سبيل الوطن العربي الاكبر ، كما أنه القى عـــلى عاتق الاقطار العربية فريضة القيام نحو نفسها ثم قيام بعضهـا نحو بعض بالعمل الاجماعي

لبلوغ هدف أقصى لن يكون بغير الوصول اليه قيمة لجميع جهودنا . اذا لم تتوحد جهود العرب ولم تبلـــغ رقياً مادياً عظيما فانها لن تستطيع أن تتملص من النفوذ الاستعماري الذي يستفيد الآن من ضعفنا وفقرنا فيرسل جذوره عميقة في أرضنا ونفوسنا .

إن مصر قطر عربي، فكيف استطاعت أن تتقدم سائر الاقطار العربية في مضمار الحيـــاة الفنية والمادية ؟ وكيف يمكن للاقطار العربية أن تستفيد من الطريق التي شقتهـا مصر لنفسها قبل أن يستيقظ سائر الوطن العربي بقرن كامل من الدهر ؟

## ١ . النهضة العلمية الحديثة

كانت مصر اسبق الاقطار العربية الى الاخذ باسباب النهضة العلمية بعد تلك الغفوة الطويلة التي اغفاها الوطن العربي منذ اواخر العصور الوسطى ، ان هذه النهضة قد بزغت في مصر ثم شعّت منها الى سائر الاقطار العربية .

يرجع الفضل الاول – او الفضل كله على الاصح – في بعث النهضة العلمية الحديثة في مصر الى « محمد علي باشا » مؤسس الاسرة العلوية المالكة في وادي النيل . لما وجـــد محمد علي الصراع الذي نشب بين بونابرته وبين المماليك على ارض مصر عام ١٢١٤ للهجرة ( ١٧٩٩ – ١٨٠٠ م ) ، وكيف ان جيوش المماليك الكثيرة بسيوفها وخيولها وطبولها وثيابها المزركشة الفضفاضة قد انهزمت امام نيران البنادق والمدافع التي حملها جيش بونابرته معه « شعر

- رغم اميته - بان الملك لا يشيد الا على امتن أسس من العلم ، وان العلم الذي تدعم به الممالك ليس ذلك « الذي يسمونه علماً في الشرق ، وانما هو الذي قامت به المدنيـــة الغربية وشيدت عليه صرح علمائها وقوتها فاقرت لها الامم (حينئذ) بالغلبة ووقفت امامها صاغرة ذليلة »[1]

فما كاد محمد علي يستقل بامر مصر وينتشلها من الفوضى والضعف اللذين انحدرت اليهما في ايام المماليك المتأخرة حتى هب الى نشر العلم على اساس متسع مكين . ولقد ادت به فطرته الفائقة ( لانه كان امياً لا يكتب ولا يحسن قراءة الكتابة ) الى ان يتجه الى العلوم الطبيعية والعلوم الفنية والعلوم الصناعية . ومنذ عام ١٢٢٨ للهجرة ( ١٨١٣ م ) بعث محمد علي بعوثاً علمية الى ايطالية لدرس الفنون العسكرية وبناء السفن والطباعة وغيرها[2]

وبعد بضع سنوات تحول نظر محمد علي من ايطالية الى فرنسة فارسل اليها طائفة من التلاميذ حوالي عام ١٨١٨ م لاتقان الفنون الحربية والبحرية على الاخص . ومنذ ذلك الحين تتابعت البعوث الى فرنسة خاصة والى النمسة وانكلترة ايضاً .

واذا نحن استعرضنا العلوم التي تلقتها البعثات الاولى الى فرنسة منذ ايام محمد علي رأيناها تتناول الهندسة المائيـة والهندسة الحربية والعلوم الميكانيكية وصب المعادن والاسلحة والعلوم الكيمائية

---

(١) عمر طوسون : البعثات العلمية في عهـد محمد علي ، الخ ، الاسكندرية ١٣٥٣ - ١٩٣٤ ص ٥-٦ .

(٢) عمر طوسون ، ص ١٠

والطب والزراعة والمعادن وما اليها من علوم وفنون ضرورية لمن كان يفكر في انشاء جيش حديث . على ان محمد علي لم يغفل عن ارسال طلبة يدرسون الادارة والسياسة والترجمة لنقل كتب العلوم والفنون من اللغة الافرنسية خاصة الى اللغة العربية ، كما انه ارسل طلاباً يدرسون في اوروبة صنع النسيج والصباغة وعمل الاحذية وصنع المناظير وموازين الهواء وعمل الفخار الصيني وما الى ذلك مما تحتاج اليه الجيوش ويحتاج اليها السكان المدنيون ايضاً . ولكن الدارس لتاريخ محمد علي باشا يرى وراء كل ريب ان الرجل كان يتجه نحو انشاء جيش حديث منظم وان جميع اصلاحاته كانت تتجه شطر هذه الغاية .

وحينما وقعت الحرب بين محمد علي وبين السلطان محمود الثاني استطاع جيش محمد علي بما فيه من معدات حديثة وتنظيم علمي ان يقف على اسوار القسطنطينية . ولولا ان الدول الاجنبية تكاتفت على رد محمد علي عن عاصمة العثمانيين لكان للتاريخ الحديث شأن آخر .

واستمرت البعثات العلمية الى اوروبة بعد محمد علي ولا تزال مستمرة الى اليوم مما خلق لمصر بلا ريب ارثاً علمياً عظيماً لم تنح الاحوال مثله ولا قريباً منه لسائر الاقطار العربية الا في السنوات الاخيرة قبل الحرب العالمية الثانية . ولعل العراق كان اقرب مثل نقدمه على ذلك . اما سائر الاقطار فانها – رغم ارسال بعثات رسمية او شخصية الى اوروبة – كانت خاضعة لسياسة اجنبية تملي عليها نوع هذه العلوم التي يجب ان يتلقاها المبعوثون من ابنائها الى بلاد الغرب ، ثم تقيد عدد هذه البعثات .

ان الحرب العالمية الثانية قد حالت دون ذهاب الطلاب العرب عموماً الى اوروبة . على ان هذه الحرب لم تكد تضع اوزارها حتى شعرت الحكومة المصرية بالحاجة الى استئناف الاستفادة من اختبار الغرب ، فاوفدت في عام ١٩٤٥ ثلاثمائة واربعين طالباً الى اوروبة ليتبحروا في الاختصاص الذي خلق اوروبة المعاصرة [١] ان هذه البعثات الى اوروبة منذ عام ١٨١٣ — اي منذ اربعة اجيال كاملة — قد بلورت التراث العلمي في مصر ، وخصوصاً اذا ادركنا تنوع الموضوعات التي كان الطلاب الموفدون يتناولونها . على انه ليس من الضروري ان يكون كل من ذهب الى أوروبة قد رجع بثروة فنية أنبت بها العمران في وادي النيل ، ولكن مما لا ريب فيه ان القلائل الذين استطاعوا ذلك هم الذين حملوا مشعال الرقي والتقدم في مصر .

*

ولكن يجب ألاّ نختم هذا الفصل قبل ان ننبه على امر عظيم جداً هو ان بعض المتأدبين يذكرون وهم يعالجون النهضة الحديثة ان العلم سار من الشام الى مصر . أنهم يخطئون كثيراً ويصيبون قليلاً . اما وجه خطأهم الكبير فهو ان الحركة العلمية انبعثت في مصر منذ عام ١٨١٣ م بينما هي لم تنبعث في الشام الا مع مجيء الارساليات التبشيرية الى سورية ، بعد سنة ١٨١٣ ببضعة عشر عاماً . . ثم ان هنالك امراً آخر أشد من هذا اهمية ، ذلك ان البعثات التي اوفدها محمد علي الى اوروبة ذهبت تطلب العلم الصحيح ، العلم الذي ينظم

(١) وزارة المعارف العامة من عام ٩٤٤ الى عام ١٩٤٥ ، ص ٢٤ .

الجيوش ويخلق الدول . اما العلم الذي حمله المبشرون الى الشام فلم يكن كله كذلك : لقـــد كانت غايته الاولى جعل البلاد بروتستانتية او كاثوليكية ، فاسمع ما يذكره مثلا هنري جسب أحد رجال عمدة الجامعة الاميركية في بيروت والذي اقامت الجامعة له بناءً عظيماً تخليداً لذكراه ، لقد قال في كتابه « ثلاثة وخمسون عاماً في سورية » ص ٥٩٢ ما يلي [١] :

« لقد نظرنا الى المدارس على انها ضرورية لنجاح التبشير ، ثم هي فوق ذلك واسطة لغاية ، لا غاية في نفسها . لقد كنا ندعو المدارس « الاسافين المتغلغلة » ، وكذلك كانت هي عـــلى الحقيقة في حمل الانجيل الى مقاطعات كثيرة . ولولا هـذه المدارس لما أتيـــح للكتاب المقدس ولا للمبشرين أن يجدوا الى تلك المقاطعات مدخلا . »

من أجل ذلك لا نلام نحن ان لم نؤخذ كثيراً بروعة التعليم الذي حملته الارساليات التبشيرية - وخصوصاً في صدر عهدهـــا - الى الشام ( سورية ) خاصة . مع ان الشاهد الذي ذكرته هنـا ليس سوى مثل بسيط على ما اردت ، وهو واحد من مئات مجموعة كلها امامي في صندوق صغير . وأنا لم اتكلف البحث عن شاهد بعينه ، وانما أخذت أول شاهد مرت به يدي .

وهكذا يجب ألاّ نقارن أبداً بين « النهضة العلمية » التي بعثها محمد علي في مصر وبين « المعلومات » التي حملها المبشرون في ثيابهم السود الينا .

---

( 1 ) Henry Harris Jessup , Fifty - Three Years in Syria, 2Vols . , N . Y . 1910 .

على ان الصواب في نسبة الفضل الى الشام في « نهضة الصحافة» في مصر يتلخص فيما يلي :

ان العلوم التي جرت في ارض مصر كانت علوماً طبيعية وفنية في الاكثر لا يمكن أن تنتشر بين سواد الشعب ولا بين عامته ، ولذلك ظلت متحيزة في المعامل والمختبرات وفي قاعات المدارس وصدور الرجال . اما في الشام فان هذه النهضة - التي جاء قسم منها من مصر أيضاً - اتخذت شكلا أبسط ولوناً أخفّ وأزهى من سابقتها في وادي النيل ، وتمثلت في الادب والصحافة والتمثيل وهي أمور يشتاق اليها الاكثرون . ولكن الشام عجزت - لقلة سكانها ولفقرها - عن أن تحمل النابغين من أبنائها فانجه هؤلاء بطبيعة الحال الى مصر حيث وجدوا عدداً كبيراً ومالا كثيراً ، فراجت بضاعتهم وعلا نجمهم وخلد أثرهم ، ونحن أهلَ الشام على ذلك مشكورون . ولكن المؤرخ يجب أن يعرض الحقائق في اتوابها الحقيقية ، والانصاف يقضي ان نقول إنّ النهضة العلمية جاءت من مصر الى الشام مع حملة ابراهيم باشا بن محمد علي[1] ، ثم تطورت هنا حسب حاجة البلاد واستعداد أهلها .

إلا ان هذا لا يمنع شيئاً واحداً ، بل يدعو اليه أشد الدعوة . إنّ على الأقطار العربية ان تستفيد من هذا التراث العلمي الحديث في مصر ، وإنّ على مصر واجباً في أن تتيح الاستفادة من هذا التراث للوطن العربي كله .

---

(١) راجع اربعة ادباء معاصرين للدكتور عمر فروخ ( بيروت ، ١٣٦٣ هـ - ١٩٤٤ م ) ص ٤ .

والعجيب اننا لا نزال في الشام – في سورية ولبنان – نهتم أشد الاهتمام بالآداب والفنون العملية ونصدف عن العلوم والفنون الصناعية ، فالمحاماة والطب والشعر وما اليها لا تزال تحتل المكان الأول بين طلابنا هنا وفي أوروبة ، وقلّ ان رأينا طالباً ذهب ليغترف من العلم الصحيح إلا اذا كان يريد أن يرجع فيدير مصنعاً تجارياً . اننا في هذا القطر العربي نتعلم العلم لكسب المال . أما الذنب فيقع بلا ريب على عاتق الحكومات . ويزعم الزاعمون ان هذه الحكومات كانت حكومات ضعيفة خاضعة لنفوذ أجنبي فلم تستطع أن تطلب العلم النافع ، لأن العلم النافع يضر بالمستعمر . اننا لا ننكر ذلك بل هو عمدة بحثنا وخالص رأينا . ان العلم الذي طلبناه لا يبني دولا ولا ينشىء جيوشاً .

من أجل ذلك يجب أن نبدّل عقليتنا في طلب العلم وان نتجه الى العلوم الرياضية والطبيعية والى الفنون الصناعية والحربية . بعد هذا يجب على البلاد العربية أن تضم جهودها المتفرقة لتستطيع أن تضمن احترامها بين امم الارض .

بقي هنالك أمر لا صلةَ له وثيقةً بالموضوع ، ولكن القارىء سيسأل عنه . يتبجّح نفر من الذين خلقهم الاستعمار « بفضل لبنان على اللغة العربية » يريدون ان يحطوا من شأن اللغة العربية وشأن الاقطار العربية . واذا سألتهم عن مظاهر هذا الفضل لم يزيدوا على ان يعدوا نفراً من الشعراء والكتاب والصحافيين نشأوا في اعقاب القرن الماضي وذهب اكثرهم الى مصر ليكتسبوا بما عرفوا . ولقد عمل الاستعمار على ابراز بعض الاسماء وطمس بعضها مما ساعد

« سياسياً » على زيادة هذا التبجح . ولو كانت هذه الرسالة دراسة ادبية لكشفنا عن الحق وسمينا الاشياء باسمائها .

اما اللغة العربية فقد مر بها عهد اهمال فلما استيقظ العرب استيقظوا في كل مكان وفزعوا الى الرجال الذين طمس المستعمر اسماءهم حيناً من الدهر ليوهم الناشئة ان الارساليات الدينية قد منت علينا وعلى اللغة العربية ، مع ان هذه الارساليات كانت وما تزال حرباً على اللغة العربية وعلى كل ما يتصل باللغة العربية . قل لا تمنوا على اللغة العربية فضلكم ، إن اللغة العربية تمن على من تشاء ، فهي التي حفظت للاقطار العربية كرامتها . ولو ان المؤامرة الاشورية والفرعونية والفينيقية قد تمت لوجدت اليوم بعض الذين يتبجحون اليوم باللغة العربية هم الذين قادوا حركة الفينيقية وهم الذين دعوا الى تبديل الاحرف العربية ، وهم الذين يقاومون العروبة في كل مكان . ولو أحببنا ان نستطرد الى جميع الخصائص الادبية لكان حديثنا طويلا . على أننا سنعود اليه عند الفراغ ، او عند الحاجة .

## ٢ . معالم الحضارة

معالم الحضارة في مصر كثيرة ، منها آثارها العظيمة والمتاحف والمعارض الفنية ومنها المؤسسات الثقافية القديمة والحديثة .

ولا ترجع كثرة الآثار في مصر الى قدم الحضارة فيها فحسب ، بل الى طبيعة ارضها ومناخها ايضاً . ليست الحضارة المصرية اقدم

من الحضارة العراقية ، ولعل آثار المصريين القدماء لم تكن اكثر من آثار البابليين والاشوريين ، ولكن وجود انواع الصخر فيها وجفاف مناخها ساعد على حفظ هذه الآثار الى يومنا هذا على ما هي عليه تقريباً .

بني المصريون اهياكل العظيمة من الصخر الصلد وبنوا اكثرها في أودية وصحارى بعيدة عن رطوبة البحر فبقيت سليمة زاهية كما تركها صانعها. ومما يدلك على فضل الجو على الآثار ان اكتشاف قبر توتنخ آمون قد أحدث في العالم ضجة كبرى ، لا لأن توتنخ آمون كان ملكا عظيما ،بل لان قبره فُتح عن ثروة عظيمة سليمة لم تمتد اليها يد البِلى ولا احالتها الوف الاعوام عن زهوها الاول .

اما العراق الادنى فان الصخر معدوم فيه . من اجل ذلك بنى سكان ما بين النهرين معالم حضارتهم الاولى وهيا كلهم باللبن ( الطين المشوي )الذي لا يقاوم عوامل الطبيعة كالصخر .ثم ان الجو الرطب في جنوب العراق خاصة والفيضان في عام بعد عام قد ساعدا على خراب هذه الهياكل وتهديمها . اضف الى ذلك ان المصريين نقشوا كتاباتهم على الصخر ، وان البابليين والاشوريين كتبوها بالخط المسماري على الآجرّ ( القرميد المشوي ) ايضاً .

من اجل ذلك كانت ارض مصر سجلاً عظيما ومُتحفاً جليلا للعالِم والدارس على السواء . ومهما استطاع الاستاذ ان يصور آثار الاقدمين امام مخيلة الطالب فانه لا يستطيع ، ولو استفرغ جهده ، ان يطبع في تلك المخيلة في ساعات طوال وايام واعوام ما تستطيع طبعَه زيارةٌ واحدة لمتحف من متاحف الآثار .

وآثار المصريين القدماء ليست آثار مصر الوحيدة، فهنالك آثار مصر الاسلامية منذ الفتح العربي الحي ومنا هذا من مساجد على الاخص وقصور وقلاع. فمصر من اجل ذلك مركز صالح لمتابعة الدراسات المختلفة في التاريخ والثقافة .

وكذلك في مصر متاحف جمعت من آثار الاقدمين شيئاً كثيراً وبلغت بها العناية مبلغاً لا مزيد عليه . ومثل ذلك معارضها الحديثة ومكاتبها . ان كل هذه الثروة الثقافية تزيد التبعة الملقاة على عاتق مصر نحو سائر البلاد العربية ثقلاً .

وان ننس شيئاً فيجب الا ننسى ذلك المعلم الحيّ من معالم الثقافة والحضارة : الجامع الازهر ، أقدم جامعة في العالم كله . ومع ان الجامع الازهر قد مر في دور لم يكن يؤدي فيه الخدمة التي يؤديها اليوم ، ولا هو اليوم يؤدي من الخدمة ما اداه في عصور ازدهاره ، فانه "قطب" تدور حوله حركة من اعظم الحركات الثقافية في العالم الاسلامي والعالم العربي . ومع ان ثمت في العالم الاسلامي مساجد تؤدي ما يؤديه الازهر على نطاق أضيق كمسجد النجف في العراق وجامع الزيتونة في تونس ، فان الرسالة التي يقوم بها الازهر اوسع مدى وأقدر على تحمل الاعباء .

ومن مظاهر الحضارة في العصر الحاضر الصحافة ، او الطباعة بوجه عام . والطباعة في مصر ، وان كانت لا تزال مقصرة عما وصلت اليه في اوروبة واميركة ، فانها قد استفادت كثيراً من اختبار الغرب وخصوصاً في الصحافة .

ويرى احد رجال التعليم في مصر [1] ان الصحافة في مصر قد نمت وأصبحت قوة يُعتدّ بها. وهو يعزو ذلك الى نشر التعليم الاولي وقيام الحركة الوطنية اللذين أدّيا الى زيادة انتشار الصحف والمجلات حتى اصبح قراؤها يُعدّون بعشرات الالوف. على انه يرى الكتب اضيق انتشاراً من الصحف، وهو في ذلك مصيب. وعندي ان مصر التي أدت اعظم الخدمات نحو تاريخ الثقافة العربية بنشر امهات المصادر ونفائس الكتب لم تزل مقصرة نحو الثقافة العربية نفسها، ذلك لان الغالب على الكتب التي تخرجها مطابع مصر اليوم - اذا اعتبرنا تلك التي تتمتع منها بانتشار واسع فحسب - تتميز بطابع صحافي وتميل الى الطرافة وادخال السرور على قلب القارىء. اما الكتب القيمة التي تظهر بين حين وآخر فان قراءها قلائل.

ومما يلفت النظر ان الكتب والمجلات والجرائد التي تطبع في مصر - سواء أكان مؤلفها يعيش في مصر أم يعيش في سواها - تتمتع بانتشار واسع: لقد اصبح اسم المطبعة المصرية على الكتاب ضماناً قوياً لذيوعه.

من اجل ذلك نجد ان في هذه الناحية الثقافية الجليلة من التأليف والنشر مجالاً عظيماً للتعاون بين البلدان العربية كي نتقدم شطر وحدة ثقافية منشودة ونرقى الى مستوى رفيع من الحضارة الغنية التي تستند اليها عظمة الشعوب والامم في ايامنا هذه.

---

(١) الاستاذ اسماعيل محمود القباني، راجع «حضارة مصر الحديثة» لنخبة من زعماء الرأي والثقافة في مصر، القاهرة ١٩٣٣، ص ٩٣.

وفي مصر معالم اخرى من الحضارة مفقودة في سائر البلاد العربية او كالمفقودة ، وكل هذه يمكن ان تستخدم لتثقيف الشعب مباشرة او غير مباشرة .

في مصر جامعتان كبريان : جامعة فؤاد الاول في القاهرة ، وجامعة فاروق الاول في الاسكندرية . وتمتاز جامعة فؤاد الاول بانها أقدم تأسيساً وانها كثيرة الامكانيات للدارسين . وليس في الشرق العربي جامعات وطنية تامة تمام جامعة فؤاد الاول . ولكن الجامعة السورية في دمشق تسير في طريق الكمال . اما جامعة بغداد فلم تستكمل بعد كل كلياتها .

اما لبنان فليس بمعذور على اهمال التعليم اعتماداً على كثرة المدارس الاجنبية فيه . ان الجامعة الاميركية والجامعة اليسوعية لا تغنيان لبنان عن انشاء جامعة قومية . على ان الهدف لا يزال بعيداً جداً بالاضافة الى لبنان ، اذ ليس في لبنان الى الآن سوى مدرسة ثانوية رسمية واحدة في عاصمة الجمهورية ، ومع ذلك فان صفوف هذه المدرسة الثانوية غير كاملة الى اليوم .

ويتبع الجامعات والكليات معاهد التخصص ، وهي معاهد مهمة في حياة الامة الثقافية . واولى هذه المعاهد معاهد التربية التي تعد لرجال المستقبل قادة في شخص المعلمين .

في مصر معهدان لاعداد المعلمين والمعلمات ولهما اثر كبير لانهما يقبلان طلاباً وطالبات من الاقطار العربية والشرقية ، فرسالتهما على هذا واسعة جداً . اما اقرب الاقطار العربية الى مصر في هذا الشأن فالعراق ، اذ نجد فيه ثماني دور للمعلمين والمعلمات : دار

المعلمين العالية ودار المعلمين الابتدائية وثلاث دور معلمين ريفية وثلاث دور معلمات اولية وابتدائية [1] ، وهذه كلها معاهد راقية جداً تسد في العراق فراغاً عظيما ، ولكن لم يتفق لها بعد ان قصدها الطلاب من خارج العراق كما يقصدون معاهد التربية في مصر .

ولقد تنبهت سورية حديثاً الى خلق دار المعلمين ودار المعلمات في دمشق خلقاً جديداً ، ولكن هذين المعهدين لا يزالان مقصرين عن سد حاجة سورية نفسها . اما في لبنان فدار المعلمين اشدتقصيراً فهي ليست سوى مدرسة ثانوية يعلم فيها بعض فروع التربية .

*

ومن معالم الحضارة في مصر الجامعة الشعبية .

لا تزال نسبة الاميين في الوطن العربي عالية جداً حتى في بلد مثل بيروت ونابلس ، وهما فيما أعلم أحسن البلدان العربية كافة من حيث انتشار العلم والثقافة ومن حيث كثرة المتخرجين من الجامعات . من أجل ذلك نجد مكافحة الأمية قائمة على قدم وساق في وطننا الكبير من شرقي العراق الى غربي مراكش . ان المدارس الليلية والمعاهد الخاصة والمدارس في القرى والارياف تشن على الامية حرباً شعواء ، ولن يمر وقت كبير حتى تهبط نسبة الاميين هبوطاً كبيراً ، وان كان الامل بانعدام الامية في المستقبل القريب مفقوداً .

---

(١) راجع تجديد مناهج إعداد المعلمين في العراق للدكتور خالد الهاشمي ، بيروت ( دار العلم للملايين ) ١٩٦٦ ، ص ١٠٦

على أن الموضوع الذي أتناوله هنا لا صلة له بمحو الامية . انه في الحقيقة خطوة في سبيل « تزويد المتعلمين علماً نظرياً بشيء من حقائق الحياة العملية » .

حرصت المدارس الاجنبية ، منذ أخذت بنشر علومها وسمومها معاً ، على أن تشجع أبناءنا على التلهي بالعلوم النظرية . وخطت بعض المدارس التي تسمي نفسها وطنية في هذا السبيل الملتوي استرضاءً للاجنبي أو تكسباً للمال من الاجنبي . ومع ان عدداً وفيراً من شباب العرب قد عرفوا هذا السوء فلم يقعوا فيه ، فان قسماً وفيراً ، وخصوصاً أولئك الذين اضطروا الى مغادرة المدرسة قبل استتمام ثقافتهم ، قد وقعوا في هذه الحبالة التي نُصبت لهم في المدارس الاجنبية . وهذا شيء تشكو منه البلاد العربية جمعاء .

من أجل ذلك أسست مصر منذ خريف عام ١٩٤٥ « جامعة شعبية » من غاياتها « العمل على نشر الثقافة العامة بين طبقات الشعب على أساس من الرغبة الشخصية من غير اشتراط مؤهلات خاصة .... على ألاّ يقتصر ذلك على ما هو نظريّ ، بل يتناول الناحية العملية المتصلة بالمهن المختلفة » .

ومنهاج « الجامعة الشعبية » يتألف من محاضرات عامة غايتها تبسيط المعلومات الفنية والعلمية والادبية . هذه المحاضرات التي يلقيها اساتذة من ذوي الاختصاص تشمل نواحي الثقافة المختلفة في السياسة والتاريخ والادب والتجارة والزراعة والاجتماع والدين والطب والصحة وما اليها . ويتبع تلك المحاضرات عادة مناقشات تعمل على تثقيف المستمعين تثقيفاً عملياً .

وليست غاية هذه المحاضرات « تخريج أطباء ومهندسين وزراع وساسة وشعراء ، ولكن غايتها جعل العدد الاوفر من المتعلمين ( إذ الامر لا صلة له بالاميين ) ملمين بالناحية العملية الضرورية من الطب والهندسة والزراعة والسياسة والشعر وما اليها كلها .

على ان هذه الفروع لا تفرض على الذين ينتمون الى الجامعة الشعبية فرضاً ، بل يختار كل منتم ثلاثة فروع ،على الاكثر ، وينتظر ان تكون ذات مساس بمهنته او صناعته . ومن حسنات الجامعة الشعبية ان الاساتذة هم الذين يشيرون على المنتمين بالفروع التي يجب ان ينتموا اليها ،وذلك بعد ان يدرسوا استعدادهم الشخصي وحاجتهم العملية . وليس لهذه الجامعة شهادات رسمية مع ان كل طالب يدفع عن كل فرع يحضره مبلغاً من المال ، ولكنه زهيد على كل حال .

والدراسة في الجامعة الشعبية مسائية ومباحة للذكور والاناث على السواء ؛ ولا يشترط لها الا شرطان اثنان :

١ ـ ان يكون الطالب ملماً بالقراءة والكتابة .

٢ ـ ان يكون عمره ست عشرة سنة على الاقل .

والذي يطلع على المنهاج المفصل للجامعة الشعبية يجد ان الاتجاه فيه قويم ، وخصوصاً في الناحية العملية ، الطبية والصحية مثلاً . ولكن منهاج الشعبة الادبية يتجاوز الغاية التي اسست هذه الجامعة من اجلها .

تقسم الشعبة الادبية قسمين ، يطلب من طالب القسم « أ » ان يستمع الى محاضرات تحليلية لخمسة وثلاثين كتاباً منها الحيوان

للجاحظ ( سبعة اجزاء ) والاغاني لابي الفرج الاصفهاني ( واحد وعشرون جزءاً ) وإحياء علوم الدين للغزالي ( اربعة اجزاء ) . ومنها ايضاً الترجمة العربية لرواية فاوست تأليف شاعر المانية غوتيه. وأظن ان بعض هذا فقط وراء طاقة المتخصصين. إن «تحليل» كتاب الاغاني تحليل للادب العربي ، « وتحليل » كتاب احياء علوم الدين للغزالي او كتاب الحيوان للجاحظ تحليل لجانب مهم من التفكير الاسلامي . اما « تحليل » فاوست فلا يمكن ان يستفيد منه طالب « ملمّ » بالقراءة ، إذ الذين يتذوقون « مدخل » هذه الرواية من الالمان أنفسهم قليلون .

ولقد فرض المنهاج الى جانب هذه الكتب الخمسة والثلاثين تراجم وتحليلاً لشخصيات ادبية وعلمية يبلغون ثلاثين او يزيدون ، منهم الطبري والجاحظ وبشّار بن برد وأبو نواس وأبو حنيفة والغزّالي وابن تيمية وابن خلدون .... مما لا يتيسر الالمام به فقط الا في زمن مديد وبعد جهد جهيد . وهذا على كل حال خارج عن نطاق « التثقيف العام » الذي أراده مؤسسو الجامعة الشعبية . ولا شك في ان المقصود من ذلك « تكوين فكرة عامة واضحة عن هذه المؤلفات النفيسة لا تحليلها أدبياً » إن هـذا ايضاً عملٌ يزيد على الغاية المنشودة .

أما انتقاد الناحية « الحديثة » في منهاج الشعبة الادبية فحديث طويل . في هذا المنهاج مثلاً كتاب « المختـار » للاديب المعاصر المرحوم عبد العزيز البشري ، احد الذين مزجوا الجدّ بالفكاهة في مصر . فلو انّ طالباً أحب النفوذ الى روح هذا الكاتب الفكه

لوجب عليه ان يأخذ جانباً كبيراً من مقالاته بالدرس و الشرح وبالتحليل والنقد ، ثم ان عمله بعد هـذا كله قليل الجدوى في الحياة العملية .

*

الا ان البلاد العربية تحسن صنعاً اذا هي عمدت الى نشر الجامعات الشعبية في البلدان المختلفة ريثما يصبح التعليم العربي كله تعليما وطنياً غايته تثقيف المواطن العربي تثقيفاً صحيحاً لا تزويده ببعض المعلومات النظرية كما يجري الآن عمداً في اكثر المدارس الاجنبية . ولكننا على كل حال يجب ان نهتم بالناحية العلمية — واقصد بالناحية العلمية ناحية العلوم الطبيعية كالكيمياء العملية والتغذية الصحية والعناية بالجسد في حالتي الصحة والمرض ... ثم الناحية الفنية كتحبيب التمتع بالصور الرائعة والاستماع الى الموسيقي الراقية وتنظيم البيوت على أساس من الذوق السليم . ويجب أيضاً ان يَتَبَصَّرَ المنتمي الى « الجامعات الشعبية » في أساليب التجارة والصناعة ليعرف الفرق بين البضاعة الرخيصة نظرياً وبين البضاعة الرخيصة حقاً وليدرك الفرق بين الشيء الضروري والشيء الكمالي ، وليفهم حقيقة الحرمان الذي يؤدي الى خير الوطن والتبذير الذي يقذف باموالنا الى المستعمر الاجنبي. ولعلّ القرى والارياف — في طول الوطن العربي وعرضه — أحوج الى مثل هذه الجامعات من المدن ، على شدّة حاجة المدن اليها .

على أنني هنا أحب ان ألفتَ النظر الى حقيقة واحدة ، هي ان المقصود من الجامعات الشعبية ليس القاء المحاضرات المختلفة فحسب ،

بل اتباع نظام خاص في القاء هذه المحاضرات ، حتى يلم « المستمع » بالناحيـــة العملية من صنعته او مهنته ، او من حياته العملية في البيت والسوق معاً . ولقـــد وفق واضعو منهاج الشعبة الطبية الى التعبير عن فكرتهم وعن فكرة الجامعة الشعبية كلها حين قالوا:

« .... يتحتم على الاستاذ الذي يحاضر ( في مواد منهج الشعبة الطبية ) ان يقصر جهده على تبسيط المعلومات الطبية بقدر الامكان ، وان يتجنب الاشارة الى الامراض النادرة الحدوث منعـــاً لبلبلة الافكار . وعليه ان يتحاشى كذلك الاسهاب في علاج الامراض المختلفة بشتى العقاقير خشية ان يؤدي سوء استعمالها والخلط بينهـا الى اوخم العواقب . وحسبه في مثل هـــذه الشؤون ان يبصر الطالب بخير الطرق لمساعدة الجسم على النقاهة ومساعدة الطبيب على المعالجة » .

*

وتمتاز مصر بدار العلوم لتعليم اللغة العربية ، وهو معهد وهب مصر خاصة عدداً كبيراً من فطاحل اللغة . إلا ان هذا المعهـــد ما زال قاصراً عنايته على العلوم العربية كالصرف والنحو والبلاغة . ومع انه اتجه حديثاً الى ادخال لغات اجنبية وعلوم حديثة فان المتخرجين فيه ينقصهم التمرس باللغات الحديثة . واحسب ان الذي يدخل هذا المعهد بعد ان يتم دراسته في جامعة عصرية يستطيع ان يفيد منه كثيراً .

ويجب ان نعد من معاهد التخصص في مصر معهد الفنون الجميلة ومعهد الموسيقى وما يتبعها من دار الاوبرا الملكية وستوديو مصر

للسينما ومحطة الاذاعة المصرية .

ومع اننا نجد في البلاد العربية معاهد فنية محدودة النشاط ، فان العالم العربي يتجه اليوم كله نحو مصر فيما يتعلق بالغناء والتمثيل والاستماع الى الاذاعة . ان الافلام العربية في العالم العربي تنتج كلها بلا استثناء في مصر . ولا ريب في ان المستمعين الى محطة الاذاعة المصرية في لبنان وسورية والعراق اكثر جداً من المستمعين الى محطة الاذاعة اللبنانية في سورية والعراق ومصر . من اجل ذلك امكن توجيه المحطة المصرية توجيهاً صالحاً نحو توحيد الجهود العربية لبلوغ الاهداف القومية .

*

على ان السينما تحتاج الى كلمة احسن تفصيلاً .

من أدوات التثقيف العامة « المسرح والسينما » . وأنا لا أعني دور التمثيل ودور السينما ، وانما اعني المعاهد التي توضع فيها الروايات و تخرج ، فالمسرح بلا ريب مهذب للشعب — او موجّه للشعب على الاصح . ان البلاد العربية باستثناء مصر مجبرة على ان تشاهد الافلام التي تأتيها من الخارج : من اميركة في الاكثر ، ومن اوروبة في الاقل ، ومن مصر نفسها . فالتوجيه الشعبي من طريق التمثيل ليس في هذه البلاد بيد ابنائها . أما في مصر فالامر مختلف قليلاً . ان مصر تشاهد افلاماً اجنبية ، ولكن العديد الاعظم من المصريين ميال الى مشاهدة الافلام العربية . واذا كانت الافلام المصرية لا تزال من حيث الاخراج الفني المترف مقصرة عما تقوم به هوليوود ، فانها على كل حال اداة واعية فيما يتعلق بالتوجيه الشعبي

في مصر .

ومن معاهد مصر النافعة « الكلية الحربية » و « ومعهد الطيران » . وهنا ايضاً تصح الموازنة بين مصر والعراق الى حد كبير . اما الموازنه بين مصر والعراق وبين سائر الاقطار العربية فلا يمكن التبسط فيها ، وخصوصاً فيما يتعلق بمعهد الطيران .

وتؤدي دار الكتب المصرية – مكتبة القاهرة الكبرى – خدمة جليلة . فهي بما فيها من نفائس المخطوطات وعديد الكتب المطبوعة تكاد تنافس مكاتب استانبول وبعض مكاتب اوروبة . فاذا اضفنا الى ميزات دار الكتب ما تخرجه سنوياً من امهات المصادر العربية ، كدواوين الشعراء الاقدمين وكتب الادب والتاريخ والجغرافية ، زادت قيمتها العملية لنا على كثير من المكاتب التي ذكرناها .

وفي مصر مجمع لغوي يقوم – برغم كل ما يثار حوله – بفوائد جلى للثقافة العربية . ومن المسلم به ان كل مجمع لغوي لا يمكن ان يؤثر الا في نخبة الادباء فقط ، ولكن يجب الا ننسى ان هؤلاء النخبة القليلة التي تتأثر بالمجامع اللغوية هي التي توجه الرأي العام وتؤثر في مجموع الشعب . ومع ان في دمشق مجمعاً علمياً لا يقل عن المجمع الملكي في القاهرة شأناً ، فان مجمع القاهرة غني تسهّل عليه ثروته بسط نفوذه في الشعب من طريق العلماء والادباء .

ثم هنالك في مصر ، حديقة الحيوانات ، في القاهرة واختها الصغرى في الاسكندرية وهما أداتان صالحتان من أدوات التثقيف . وليس في سائر البلاد العربية شيء من ذلك .

والجمعية الجغرافية الملكية ، جمعية فريدة في غايتها وموضوعها في العالم العربي ، فهي تضم أعلام الجغرافية في مصر ، وتدرس في جلساتها الخاصة – وقد تلقى أحياناً في قاعتها العامة – أبحاثٌ وموضوعات تتصل بهذا الفرع الهام من فروع المعرفة . وتستطيع الجمعية الجغرافية ، اذا ما انضم اليها نخبة من المشتغلين بالجغرافية في البلاد العربية ، ان تقدم أجلّ النفع الى العالم العربي فيما تدرسه من أحواله الجغرافية وتطورها خلال العصور ، أوما يعتري العالم العربي من ظواهر جغرافية تؤثر في سكانه .

ولمصر اهتمام كبير بالمعارض المختلفة . وهذه ادوات صالحة جداً للتثقيف ، فالمعرض الزراعي مثلاً يمثل الحياة الزراعية في جميع ادوارها وفي جميع وجوهها . ومعرض الشمع مثلاً يمثل عظماء مصر في حياتهم العامة والخاصة بتماثيل ذوات حجم طبيعي تكاد تنطق وتتحرك . ثم هنالك متاحف صناعية .ومتحف للبريد وسوى ذلك مما يساعد الدارسين والباحثين او يثقف بها المتعلمين ثقافة عامة وثقافة قومية في وقت واحد .

وبنك مصر ، المؤسسة المالية التي انقذت مصر من الازمة الاقتصادية ، مظهر هام من مظاهر الحضارة في مصر . والمصانع الملحقة به تمد مصر بأكبر نصيب من حاجتها من النسيج والملبس ، وقد صنعتها أيد مصرية في معامل « المحلة الكبرى » .

ان التعاون العربي يجني اليوم ، وسيجني في الغد القريب اكثر فاكثر ، أطيب الثمار من هذه المؤسسة الاقتصادية التي بثت فروعها في عواصم البلاد العربية .

وفي الفندق الذي انشأه بنك مصر في الحجاز ، بداءة حسنة نرجو أن تتلوها خطوات أوسع .

وفرق الكشافة والمرشدات أداة فعالة من أدوات التعاون الاجتماعي في العالم العربي ، فان وحدة التعاليم الكشفية والرحلات المتبادلة والمخيمات التي تقام في كل مكان ، تقرب وجهات النظر بين الشباب الجديد وتعرّف شباب العالم العربي بعضه ببعض . وإنّ اشراف وزارة المعارف المصرية على فرق الجوالة والمرشدات كفيل بان تؤدي هذه المهمة على وجه أكمل ، فيقوى تعاون الفرق الكشفية العربية وتتحد أهدافها .

*

فمعالم الحضارة اذن — وهي ادوات نافعة في التثقيف — كثيرة في مصر ، ثم هي على كثرتها يمكن ان تستخدم استخداماً قومياً ناجعاً . والتثقيف ، ككل شيء آخر ، يجب الا يُنظر فيه الى منفعة الفرد فحسب ، بل يجب ان يُقصد منه مجموع الامة في الدرجة الاولى . ان الجامعات يجب الا تعلم الطب والمحاماة والهندسة ، ولا الصناعة والزراعة والتجارة حتى تساعد الذين يتعلمون هذه الفروع على الوصول الى الثروة الشخصية ، بل يجب ان تعلمهم حتى يزيدوا امتهم قوة على قوتها وتقدماً على تقدمها ومناعة فوق مناعتها . واذا قُدِّرَ لطبيب او محام او مهندس ... او تاجر ان يجمع ثروة صغيرة او كبيرة فيجب ان يكون ذلك امراً عارضاً في حياته لا غاية مقصودة من تعليمه .

## عظم الثروة

مصر بلد غنيّ ، ترى آثار غناه في تاريخه القديم وفي عمرانه الحاضر . على أن العمران في مصر مظهر من مظاهر الحياة العامة في الأغلب ، وفي النواحي التي تقوم بها الدولة على الاخص . ومع ان الثروة في مصر – كما في كل بلد زراعي – غير موزعة توزيعاً عادلا ، فانك ترى المشاريع الكبرى ماثلة في كل مكان .

لقد استطاعت مصر بثروتها أن تنشىء نظاماً ضخماً للتعليم ، نظاماً ضخماً على كل حال بالاضافة الى البلاد العربية . وارى الاستاذ عبد الله المشنوق مصيباً في قوله التالي[1] :

« لقد زرت عدداً كبيراً من المدارس – على اختلاف انواعها – في مصر والعراق وسورية ولبنان وفلسطين ، واستطيع ان أصرح ، دونما تحيّز أو مواربة ، بان المعاهد المصرية تأتي في الطليعة من حيث أخذها بالاساليب الحديثة في التربية والتعليم وسخاء الحكومة في الانفاق عليها لتتوفر فيها الشروط الفنية . ويشمل قولي هذا المعاهد الابتدائية والثانوية العليا ، العامة منها والفنية المهنية . لذلك أدعو الاقطار العربية ( الى ) أن تتعرف تماماً الى هذه المعاهد المصرية قبل البدء بانشاء مدارس جديدة أو القيام باصلاح عام في مدارسها القديمة » .

وهذا الذي ذكره الاستاذ عبد الله المشنوق يصدق الى حد

---

(١) التعاون الثقافي بين الاقطار العربية الخ ( بيروت ١٩٦٥ ) ، ص ٨٩ – ٩٠ .

كبير . فان ثروة مصر تمكنها من ذلك كله على الرغم من أن ميزانية المعارف المصرية ضعيفة جداً بالاضافة الى ميزانية المعارف في عدد من الدول الغربية . ان هولنده تنفق على التعليم ٢٣ بالمئة من ميزانيتها أو نحو ربع الميزانية ، والسويد تنفق ١٩ بالمئة ، وشيلي ١٨ بالمئة ، والمجر ١٦ بالمئة ، وارلندة ١٥ بالمئة ورومانية ١٢ بالمئة والمكسيك ١١ بالمئة ؛ بينما مصر لا تنفق على التعليم إلا ٨ ونصف بالمئة[٢] . اما لبنان فلا ينفق على التعليم إلا نحو خمسة بالمئة من مجموع ميزانيته .

وضخامة الثروة في مصر قد مكنت الحكومة من ارسال البعثات المختلفة الى اقطار مختلفة ولغايات مختلفة .

هنالك ارسال الطلاب المصريين للاغتراف من أنواع العلوم في الغرب ، وهذا امر تقوم به الدول العربية كلها تقريباً ولكن على درجات متفاوتة في القلة والكثرة . فهذه البعثات من العراق وسورية كثيرة بالاضافة الى تونس ولبنان مثلاً .

ولقد سارت البلاد العربية في سبيل التعاون الثقافي شوطاً بعيداً اذا اعتبرنا عدد الاساتذة وتوزيعهم في اقسام الوطن العربي . ولقد قدمت مصر وسورية ولبنان وفلسطين خاصة اساتذة لسائر الاقطار العربية وقبلت هي بدورها اساتذة من غير بقعتها . فلو لم ننظر الا الى عهدنا الحاضر لرأينا اساتذة لبنانيين في سورية والعراق وفلسطين والبحرين والكويت واليمن ، ولرأينا اساتذة فلسطينيين أو سوريين في العراق . ولقد كنت أود ان يكون بين يدي

---

(٢) راجع اسماعيل القباني ، ص ٩١ .

احصاء دقيق شامل لاساتذة كل قطر عربي في سائر الاقطار العربية ولكنني لا املك هذا الاحصاء ، لأن اكثر المدرسين من فلسطين وسورية ولبنان يذهبون من تلقاء انفسهم ليعلموا في اجزاء الوطن العربي المختلفة فلا سبيل الى معرفة عددهم ونسبة توزعهم في الارض .

ولكن بما أن الحكومة المصرية هي التي تتولى ارسال المدرسين الى الاقطار العربية فان الحصول على احصا لهؤلاء المدرسين ميسور من أهون سبيل ، واليك عددهم بحسب الاقطار التي يدرّسون فيها :

| | | |
|---|---|---|
| في المملكة العراقية | ١٧٥ | مدرّساً ومدرّسة . |
| في الجمهورية السورية | ٧٥ | 〃 〃 |
| في امارة الكويت | ٢٠ | 〃 〃 |
| في امارة البحرين | ٢٠ | 〃 〃 |
| في الجمهورية اللبنانية | ١٥ | 〃 〃 |
| في عدن | ٦ | مدرسين ومدرسات . |
| في الحجاز | ٢٠ | مدرّساً . |
| في المملكة الاردنية | ١٠ | مدرّسين . |
| في اليمن | ٩ | 〃 |
| في لَحْج | ٨ | 〃 |
| في فلسطين | ١ | مدرّس واحد . |

هذا عـــدد المدرّسين والمدرّسات فقط ، وهو لا يشمل طبعاً المهندسين والاطباء المختلفي الاقطار من الذين يؤدون رسالة العرب القومية في الوطن العربي الكبير .

واذا تأمل المتأمل هذه الحقائق أدرك ان التعليم باب عظيم من

أبواب التعاون بين الاقطار العربية ، وهو باب يجب ان يفتح على مصراعيه ولكن لحَمَلَةِ الرسالة القومية السامية . ان السوريين واللبنانيين ما زالوا منذ مطلع القرن الحاضر يؤدون رسالة ثقافية في مصر والسودان ثم في فلسطين والعراق ، وها نحن أولاء اليوم نجد الاساتذة المصريين يؤدون هذه الرسالة نفسها .

وانني أرى أن على العراق والحجاز واليمن ان ترسل اساتذة الى سائر الاقطار العربية – على الرغم من حاجتهـــا الحاضرة الى اساتذتها جميعهم . ذلك لان الغاية من تبادل المدرّسين بين اقطار الوطن العربي ليست غايتـه تعليم الصرف والنحو ولا تلقين الجمع والطرح وانما هدفه الحقيقي دراسة الامكانيات المختلفـة في الوطن العربي الكبير واداء رسالة قومية واحـدة ترمي الى جعل العرب صفاً مرصوصاً في وجه الاستغلال الاستعماري .

من اجل ذلك يحسن ان يُعنىَ بانتقاء رجال البعثات الثقافية الى البلاد العربية عناية فائقة وان نصرف النظر عن الاساتذة الذين لا يحسنون أداء الرسالة القومية العليا ، وبالاحرى عن الاساتـذة الذين يسيئون الى اقطارهم الاصلية في الاقطار التي ارسلوا اليها . ولا يزال العالم العربي يذكر إساءة بعض المدرسين والمدرسات في العراق والضجة التي ثارت من اجلها عندنا نحن عام ١٩٤٠ .

وهنالك عدد من هؤلاء لا يعيشون في البلاد التي يجيئون اليها عيشة تصلح ان تكون قدوة ، لا من الناحية الخلقية ولا من الناحية القومية . ولا ننسى ان العامي لا يسيء الظن حينئذ بالمـدرس بل بالبلاد التي ارسلته ، اذ المفروض ان كل قطر لا يرسل الى غيره من

الاقطار الا المدرسين الذين يحسنون اداء الرسالة على وجهها الاكمل او القريب من الكمال، وكذلك يجب الا ننسى ان الطالب عنصر مهم في هذا الموضوع ، بل هو في الحقيقة العنصر المهم . إن احترام الطلاب للمدرسين القادمين من انحاء الوطن العربي أفضل من رضا رؤساء المؤسسات التي ينتمي اليها هؤلاء الطلاب .

من اجل ذلك اقترح ان تتبادل الاقطار العربية بين الفينة والفينة عدداً من كبار الاساتذة ـ ولو لمدد وجيزة ـ او ان تؤسس « رحلات ثقافية » يقوم في اثنائها هؤلاء الاساتذة الكبار بمحاضرات ومناقشات معدودة في المعاهد المختلفة في الوطن العربي الكبير .

ومما يلفت النظر ان بعض الاقطار العربية كالعراق وسورية والحجاز واليمن ترحب بالاساتذة المصريين في مدارسها الرسمية ايضاً بينما لبنان وفلسطين مثلا لا يفعلان ذلك .

اما مساهمة السوريين واللبنانيين في التعليم في العراق وفلسطين فليس لها طابع رسمي ، وانما هي جهود فردية ليس لها من القيمة المعنوية الا ما يكمن في نفوس الافراد من العزة القومية احيانا ، وعلى درجات متفاوتة ايضاً .

ولا ريب عندنا قط في ان قيمة هذه البعثات الحقيقية انما هي خلق جو من الجهاد الموحد اكثر منها لنقل المعلومات الى الطلاب. ان المعلم المصري الذي يعلم النحو في لبنان ، والمعلم اللبناني الذي يعلم الرياضيات في فلسطين والمعلم السوري الذي يعلم التاريخ في العراق ليست مهمته الاولى تفسير كتب النحو والرياضيات والتاريخ للطلبة ، وانما هي للتدليل على فقدان هـــذا الفارق الذي اوهمنا

المستعمر الاجنبي انه موجود بين الاقطار العربية .

ان المعلمين العرب يتنقلون بين قطر وقطر لا ليكسبوا دراهم معدودات يرجعون بها الى بلادهم ، وانما هم يفعلون ذلك ليربحوا معركة من اشرف معارك التاريخ ، معركة ستعيد الثقافة العربية موحدة خالصة كما كانت من قبل ان يعمل المستعمر على تشويه محاسنها وعلى تنفير كل قطر عربي من سائر الاقطار العربية .

ويجب ألا نترك هذا الفصل قبل ان يستقر في ذهننا ما يلي :

ان العالم العربي اليوم في حالة شاذة ، بعضه مستعمر مستعبد ، وبعضه مستقل ، وبعضه بين بين . ثم انه ليس - على كل حال - على مستوى واحد من حيث الرقي المادّي ، فمصر مثلاً أغنى من لبنان ، ولا من حيث الرقي الثقافي ، فلبنان مثلا ارقى من تونس والجزائر ومراكش ، وفلسطين من حيث المجموع المتعلم على مستوى عالٍ جداً من الثقافة . وهكذا نجد ان في العالم العربي مجالا عظيما للتعاون ، وان كل قطر عربي ، مهما صَغُرَ ، قادر على ان يقدّم الى كل قطر آخر وجهاً من اوجه التعاون . ثم ان كل قطر عربي ، مهما اتسع وعظم ، محتاج الى سائر الاقطار في أمر من الامور .

اننا نريد من قومنا ان يستيقظوا الى هذه الحقيقة العظمى . ان الولايات المتحدة والامبراطورية البريطانية والاتحاد السوفياتي وفيها ثمانمائة مليون من البشر لم يستطيعوا ان يتغلبوا على المسانية الا بعد ان وحدوا جهودهم وتناسوا احقادهم . فعلى العرب ايضاً ان يوحدوا جهودهم حتى يستطيعوا ان يبلغوا الى العظمة التي يكدحون في سبيلها .

# الضعف الذي يخلق القوة

•

في العلوم الطبيعية – او الكيمياء على الاصح – ظاهرة تبدو غريبة في نظر الرجل العادي، ثم هي تدعو الى الاعتبار في نظر المتأمل الفاحص: في الطبيعة عنصران بسيطان احدهما يدعى في لغة العلم « الصوديوم »، وهو عنصر كاوٍ متلف؛ وثانيهما يدعى « الكلور » وهو عنصر سامّ. على ان هذين العنصرين المهلكين – وهما مفترقان – يأتلفان في عالم الطبيعة من تلقاء نفسهما ويؤلفان مركّباً يسمى « كلوريد الصوديوم »، او ملح الطعام. هذه المادة الجديدة المركبة من عنصرين مهلكين في الاصل ليست مهلكة ولا سامة، وهي ايضاً ليست نافعة فحسب، بل ضرورية للحياة.

وانا لا احتاج الى ان أشيدَ بفوائد التعاون والتكاتف والاتحاد هنا، فلقد بحّ صوت الانسانية وهي تفعل ذلك. وكذلك لن أحصر جهدي في تعداد الاسس التي يجب ان يقوم عليها هذا التعاون، فلقد سبقني الى تعدادها كثيرون. ولكنني سأختار اوجهاً بارزة وافصل الكلام عليها قدر الامكان.

اذا اردنا ان نسمي الاشياء باسمائها فيجب ان نعتبر ان التعاون بين الاقطار العربية يجب ان يتناول كل وجوه جهودنا الحقيقية ، لا ان يكون تعاوناً شكلياً . واولى اوجه التعاون بين الاقطار العربية تبادل البعثات الثقافية ، وهذا التبادل يجب ان يتناول الاساتذة والتلاميذ على السواء .

مما لا ريب فيه ان المعاهد الرسمية المصرية تتقدم ، من حيث الفرص التي تتيحها للطلاب ، جميع المعاهد الرسمية في البلاد العربية ، ويجب علينا ان ننتظر زمناً طويلاً او قصيراً - بالاضافة الى البلدان العربية المختلفة - حتى تصبح المعاهد كلها في جميع البلاد العربية على مستوى واحد او مستويات قريب بعضها من بعض ، فيمكن حينئذ تبادل التلاميذ على نطاق واحد .

اننا الآن اذا استثنينا الجامعة الاميركية في بيروت ، لا نجد في البلاد العربية كلها طلاباً مصريين خاصة ولا طلاباً عرباً عامة يمكن ان يكونوا موضع مقارنة . على ان الطلاب العرب في مصر كثيرون جداً . وبينما نرى الطلاب العرب يأتون من جميع الاقطار العربية الى بيروت ليدخلوا مؤسسة اجنبية ، فاننا نجد هؤلاء الطلاب يؤمون مصر للدخول في معاهدها الرسمية الوطنية .

وقد يكون اجدى على الطالب نفسه ان يتجه - اذا تكافأت لديه الفرص وتساوت الممكنات - الى اوروبة لاستتمام علمه ، ولكن الجدوى تكون اكبر على الوطن العربي اذا تنقل الطلاب بين معاهد العالم العربي ، ولو مدة وجيزة من الزمن

وقد يعترض معترض فيزعم ان الطالب العربي ربما أتى من بلد

عربي ضعيف ثقافياً الى بلد عربي آخر ضعيف من الناحية الثقافية أيضاً ، فما عسى ان يفيد هو من ذلك البلد الضعيف ؟ وما عسى ان يستفيد البلد القوي أو الضعيف من بلد طالب ضعيف؟ اليس الأجدى أن يذهب الطالب العربي الى اوروبة مرة واحدة ؟

إننا اذا ادركنا الغاية من تبادل الطلاب بين البلاد العربية ، هان علينا الجواب ، وذلك اذا نظرنا الى حقيقة التعاون . وسأضرب على ذلك مثلين آخرين من عالم الطبيعة :

هنالك في الطبيعة ثلاثة عناصر ، أحدهما الكربون ، وثانيهما الهيدروجين ، وثالثها الاكسوجين وكل هذه عناصر « تافهة » أي لا طعم لها. ولكن اذا تركبت هذه العناصر معاً خرج منها «السكر» ، وهو مركب حلو الطعم لذيذ نافع .

ومن العناصر الضعيفة التي تكتسب قوة عظيمة اذا تركبت عنصر « النتروجين » . ان النتروجين عنصر بليد خامل كسلان لا يتفاعل من تلقاء نفسه مع عنصر آخر أبداً ، ولذلك تجده دائماً - اذا تُرك وشأنَه - طليقاً منفرداً. ولكننا اذا أجبرناه على أن يتحد مع عناصر أخرى كالهيدروجين والاكسوجين والكربون وامثالها وهي عناصر قد تزيد على النتروجين قليلا أو كثيراً في الفعالية ، أمكن أن يخرج من هذه العناصر مركب جديد هو «الديناميت» ، وهو من أشد المواد قوةً انفجارٍ وسرعة فعالية .

ونحن كذلك في الوطن العربي . قد لا يستطيع ابن اليمن ان يستفيد علماً مادياً وفناً عملياً من ذهابه الى الجزائر ، كما ان ابن الجزائر لا يفيد العراق ومصر اذا جاء اليهما من الناحية المادية

الفنية . غير أن ابن اليمن يستطيع أن يتلمّ بروح عظيم من تنقله في البـــلاد العربية : بروح الوطن الاكبر وقوة الشعور بين بلاد العرب. وكذلك ابن مصر يرى مثلاً في الاقطار التي وقف المستعمر في وجه عمرانها ، روحاً كامناً فيذكيها بتوثبه القومي ويغمره هو حينئذ روح الشعور بتبعة البـــلد القوي الحر نحو البلد السليب المظلوم .

ثم هنالك الغاية الكبرى من الثقافة. لا يمكن لبلد من بلاد العالم ان ينهض اذا كان كل فرد فيه يعتقد انه يتعلم ليكتسب وسيلة يستطيع أن يجرّ بها النفع الى نفسه وحدها. يجب ان تكون الثقافة في بلد ما سبيلاً الى رقي كل فرد فيه ، يجب أن يشعر المثقف أنه أصبح « ديناراً يتـــداوله العرب في سوق الوطن لا درهماً يخزنه البائع الصغير الشحيح في صندوقه الحقير » . اننا اذا فهمنا ذلك أدركنا قيمة تنقل الطلاب في الوطن العربي وأيقنا ان مجيء طالب من قرية من قرى الصعيد في مصر الى قرية ضائعة في ثلوج لبنان أنفع لقضية العرب من ذهـــاب الف شاب من بيروت ودمشق وبغداد والرياض والقاهرة الى باريس ولندن ونيويورك ، قبل ان يعرفوا وطنهم الذي خلق عظمة اسلافهم وبنى أسس مجدهم . فاذا فعلوا ذلك فلا جُناحَ عليهم فيما بعد أن يذهبوا الى جميـــع اقطار العالم .

ومع ان المقصود من تبادل الطلاب انما هم طلاب المعاهد العالية ، فان تبادل الطلاب بين المعاهد الثانوية يرجع ببعض الفائدة ايضاً .

واذا كانت الدول الغربية تتبادل الطلاب على ما بينهـــا من

تباين وجهات النظر واختلاف الاصول الجنسية ، فان من البديهي ان يكون تبادل الطلاب بين البلاد العربية امراً طبيعياً لا يحتاج الى دفاع عنه ولا الى تساؤل ايضاً .

وهنالك ايضاً تبادل الاساتذة . ان عدداً كبيراً من الاساتذة المحترفين يتنقلون بين الاقطار العربية للتعليم تكسباً للمال ، ومنهم من يقوم الى جانب ذلك - ولكن الى حد ما - بنشاط ثقافي عام. على ان التبادل الذي نعنيه نحن شيء آخر . يجب ان يأتي الاساتذة من العراق مثلا الى سورية ولبنان ومصر والمغرب ، او من سورية ولبنان ومصر والمغرب الى العراق وفلسطين والسودان من غير ان يقطعوا صلاتهم باقطارهم الاصلية . ويجب ان يتنقلوا لاداء رسالة ثقافية فحسب . ان هذا التنقل يجب ان يكثر من غير ان يطيل الفرد الواحد اقامته كثيراً ، اذ الغاية الاولى من مثل هذه الصلات ان تتعارف الوجوه في ميادين الجهاد المختلفة ، وخصوصاً في هذه المرحلة التي تنهد فيها الاقطار العربية الى حياة حرة مستقلة ، وفي الوقت الذي يغمر فيه الشعور القومي اقطار العرب جمعاء .

*

وفي الوطن العربي عدد كبير لا يستطيعون التنقل في البلاد فيجب ان نصل بعضهم ببعض من طرق مختلفة . من هذه الطرق اقامة المباريات الادبية والرياضية وما اليها .

ان القارىء الذي يتاح له وهو في العراق ان يتبارى في مسابقة ادبية وضعت في مصر او لبنان يشعر بقوة تشده الى اخيه في مصر او في لبنان ، فاذا اتفق ان نال جائزة قطر من الاقطار ابن قطر

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARY

آخر زادت هذه الروابط شدة وقوة .

واعتقد ان مصر قد اغفلت هـذا العامل الفعال حينما وطعت جوائز فؤاد الاول وفاروق الاول وجعلتها قاصرة عـلى المصريين دون سواهم .

ومن اوجه التعاون النافعة ايجاد اتحـاد بريدي عربي . حينما يذهب ساكن مصر او فلسطين الى ادارة البريـد ليضع رسالتين احداهما الى انكلترة والثانية الى بيروت ثم يضع على كل رسالة منهما طابعاً بعشرين مليماً يغلبه الشعور بان بيروت تبعـد عن القاهرة كبعد لندن سواء بسواء . ولكنه حينما يدفع على الرسالة المرسلة الى جميع الاقطار العربية ما يدفع على رسائله الداخليـة يشعر بان المسافات في الوطن العربي قد قصُرت .

ولقد أدرك الاميركيون خاصة فائدة ذلك ، فان الرسالة التي ترسل من اقصى مدينة في الولايات المتحدة الى اقصى مدينة في اميركة الجنوبية يدفع عليها ثلاثة سنتات فقط كما يدفـع عن الرسالة بين قريتين متجاورتين في الولايات المتحدة نفسها . وجميع دول اميركة الشمالية واميركة الجنوبية – مع انها دول مستقلة داخلة في منظمة الامم المتحدة – تبادل الولايات المتحدة هذه البادرة الحسنة .

وهنالـك حواجز كثيرة اذا رفعت تقرب بين اقطار الوطن العربي كتوحيد الجوازات او الغائهـا وكتوحيد العملة وتيسير المعاملات الجمركية مما أفنى الكاتبون في بحثه الاوراق والاقلام .

والتعاون بين البلاد العربية يتسع فيه القول ، ولكن غايتنا

ان ننبه على امر مهم، هو التبعة التي يجب ان يشعر بها ابناء الاقطار المتقدمة تقدماً مادياً نحو ابناء البلاد التي حرمت الرقي المادي زمناً طويلاً، ثم الواجب على جميع ابناء الاقطار العربية بان تستيقظ للمستقبل البراق. ان العرب الآن يستفيقون رويداً رويداً من سبات الاستعمار، فعسى الا يطول الزمن قبل ينفضوا عن انفسهم الرقاد وينطلقوا في مضمار الحضارة. ويجب ان يذكروا دائماً ان السكر الحلو مركب من ثلاثة عناصر لا طعم لها، وان الديناميت الشديد الانفجار مركب ايضاً من عناصر بعضها خامل كسلان لا فعالية له ابداً.

DATE DUE

LIBRARY

A.U.B. LIBRARY

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
00383060

9569
F24nA
c.1